الدولة العلية العثمانية: موسوعة التاريخ والحضارة (1299–1924)

المؤلف د.محمد كمال عرفه الرخاوي

الباحث والمستشار القانوني والمحاضر الدولي في القانون والخبير والفقيه والمؤلف القانوني

الاهداء

اهدي هذا العمل الضخم والاكاديمي الي روح والدي الطاهره اللهم ادخلهم الجنه بدون حساب

والي ابنتي الحبيبه وقره عيني صبرينال جميله الجميلات المصريه الجزائريه التي تجمع بين جمال نهر النيل الخالد وجمال شط البحر المتوسط وجبال الاوراس الشامخه

المجلد الأول: النشأة والصعود

مقدمة المؤلف: لماذا هذا الكتاب؟

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين.

التاريخ ليس مجرد تراكم للتواريخ، ولا سرداً متتابعاً لوقائع المعارك وملوكها؛ بل هو نبض الأمم الذي يكشف عن سنن الله في قيام الدول وانهيارها.
وعندما نتحدث عن الدولة العثمانية، فإننا لا نتحدث عن سلالة حكمت أرضاً واسعةً لستة قرون فحسب، بل نتحدث عن مشروع حضاري كان جسراً بين الشرق والغرب، وحاضنةً للإسلام في أحلك ظروفه، وشاهداً على تحولات العالم من العصور الوسطى إلى العصر الحديث.

لماذا نكتب عن العثمانيين مرة أخرى؟ أليس ما كُتب عنهم يكفي؟

الحقيقة أن المكتبة العربية تعاني من فجوة عميقة في التعامل مع التاريخ العثماني؛ فإما أن نقرأ تاريخاً مكتوباً بقلم المستشرق، يحمل في طياته بذور التشكيك والتقليل من الشأن الإسلامي، وإما أن نقرأ تاريخاً كتبه قلم العاطفة، يقدس الأبطال وينسى الأخطاء، ويغفل عن السنن الكونية التي أدت إلى السقوط.

هذا الكتاب يأتي ليُسدّ هذه الفجوة.

إنه محاولة جادة لكتابة التاريخ الكلي للدولة العثمانية؛ تاريخ لا يكتفي بقصر توب كابي، بل ينزل إلى أسواق القاهرة ودمشق وبغداد وسراييفو. تاريخ يُحاور الوثيقة قبل الرواية، ويوازن بين الإنجاز والخطأ، ويرى في العثمانيين بشراً يصيبون ويخطئون، لا ملائكة ولا شياطين.

لقد اعتمدنا في هذه الموسوعة على منهج نقدي يحترم العقل قبل العاطفة، ويستند إلى أرشيفات لم تُفتح بالكامل للقارئ العربي من قبل، محاولين الإجابة عن السؤال الجوهري: كيف عاشت هذه الدولة ستة قرون؟ وكيف ماتت في عقد واحد؟

إنه ليس كتاباً للماضي فحسب، بل هو مرآة للمستقبل؛ لأن من لا يعرف كيف بُنيت إمبراطوريته، لا يعرف كيف يحافظ على أمته.

والله ولي التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الفصل الأول: المهد الأناضولي: بين الأسطورة والوثيقة

1.1 العالم الإسلامي في مهب الريح (منتصف القرن الثالث عشر)

قبل أن تلمع شمس الدولة العثمانية على أفق التاريخ، كان العالم الإسلامي يغوص في ظلام دامس. ففي عام 1258م، سقطت بغداد عاصمة الخلافة العباسية تحت وطأة الغزو المغولي، لتنهار ركيزة أساسية من ركائز الحضارة الإسلامية. وفي الغرب، كانت الحملات الصليبية لا تزال تترك ندوبها على الساحل الشامي، بينما كانت الدولة السلجوقية في الأناضول، التي كانت درعاً للإسلام، تتداعى وتفقد سيطرتها المركزية بعد معركة كوسه داغ (1243م) أمام المغول.

في هذا الفراغ السياسي والعسكري، نشأت إمارات الحدود؛ دويلات صغيرة نشأت على التخوم بين الأراضي الإسلامية والأراضي البيزنطية في الأناضول. لم تكن هذه الإمارات تبحث عن ملك العالم، بل كانت تبحث عن البقاء. ومن بين هذه الإمارات المتناثرة، كانت هناك إمارة صغيرة لا يُلتفت إليها، تقع في سوغوت، جنوب شرق بحر مرمرة، يحمل حاكمها اسم عثمان بن أرطغرل.

1.2 قبيلة قايي وأسطورة التأسيس

تنحدر الأسرة العثمانية من قبيلة قايي التركية، إحدى قبائل الغز التي هاجرت من سهول آسيا الوسطى هرباً من الضغط المغولي. وتُروى الأساطير العثمانية لاحقاً عن حلم عثمان الذي رأى فيه شجرة خرجت من صدره وظلتها تغطي العالم، لكن المؤرخ النقدي لا يعتمد على الأحلام في بناء الدول، بل يعتمد على الوقائع.

الحقيقة التاريخية تؤكد أن أرطغرل كان قائداً محنكاً استطاع أن يناور بين القوى الكبرى آنذاك (السلاجقة، المغول، البيزنطيون)، وحصل على إقطاعية سوغوت كمكافأة على ولائه للسلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد. لكن العبقرية الحقيقية بدأت مع ابنه عثمان. لم يكن عثمان مجرد غازٍ، بل كان سياسياً محنكاً أدرك أن البقاء ليس للأقوى عسكرياً فحسب، بل للأكثر مرونة دبلوماسياً.

1.3 الجغرافيا صانعة القدر

لماذا نجح العثمانيون وفشلت غيرهم من إمارات الحدود؟

الإجابة تكمن في الجغرافيا.

لقد وقعت إمارة عثمان في موقع استراتيجي فريد:

أولاً: غرباً، تواجه إمبراطورية بيزنطية هرمة، ضعيفة، وممزقة بالصراعات الداخلية واللاهوتية، مما جعلها غنيمة سهلة مقارنة بالمواجهات مع المغول في الشرق.

ثانياً: شرقاً، كانت محمية نسبياً من خطر المغول المباشر بفضل الإمارات الأخرى التي كانت تعمل كمنطقة عازلة.

ثالثاً: ثقافياً، كانت أرضاً مفتوحة للهجرة؛ فقد تدفق عليها المسلمون الفارون من مغول الشرق، مما وفر

لها بشراً وطاقة بشرية متحمسة للجهاد والاستقرار.

1.4 إعلان الدولة (1299م): رمز أم حقيقة؟

يؤرخ المؤرخون تقليدياً قيام الدولة العثمانية بعام 1299م، وهو العام الذي أعلن فيه عثمان استقلاله الاسمي عن السلاجقة بعد انهيار سلطتهم الفعلية. لكن هذا التاريخ ليس حدثاً مفاجئاً وقع في ليلة وضحاها، بل كان تتويجاً لعملية تراكمية.

في هذا العام، ضرب عثمان أول عملات فضية باسمه، وخُطب له على المنابر، وبدأ يتلقب بسلطان. لكن الأهم من الألقاب كان النظام.

أسس عثمان نواة ما سيُعرف لاحقاً بـ النظام العثماني، الذي يقوم على:

المرونة الدينية: التعامل مع الرعايا المسيحيين بنظام الملل، مما قلل من مقاومة السكان المحليين.

النخبة العسكرية: البدء في تكوين نواة لجيش نظامي موالٍ للسلطان مباشرة (بذرة الإنكشارية لاحقاً).

القانون العرفي: وضع قوانين قبلية وإسلامية تنظم الحياة في الإمارة قبل وجود دستور مكتوب.

1.5 أول اختبار: حصار بورصة

لم يمت عثمان وهو يرى ثمرة جهاده كاملة، لكنه زرع البذرة التي ستنمو في عهد ابنه أورخان. كانت آخر وصاياه لابنه أورخان: يا بني، إياك والاشتغال بما لا يعنيك، وإياك والاعتماد على غيرك، وسع صدرك للعالمين، واجعل الشريعة نصب عينيك.

توفي عثمان عام 1324م، تاركاً إمارة صغيرة مساحتها لا تتجاوز 4000 كم²، لكنها تحمل في رحمها إمبراطورية ستغطي ثلاثة قارات. كانت بورصة، تلك المدينة البيزنطية الحصينة، قد سقطت بعد حصار طويل بعد وفاته لتصبح أول عاصمة رسمية للدولة، معلنةً انتقال العثمانيين من مرحلة القبيلة الغازية إلى

مرحلة الدولة المستقرة.

الفصل الثاني: أورخان غازي: تحويل الإمارة إلى دولة (1324–1362م)

2.1 مقدمة: ورثة الغازي

توفي عثمان بن أرطغرل تاركاً وراءه مشروعاً طموحاً، لكن الموت كان اختباراً أولياً للدولة الناشئة. هل ستنهار الإمارة بموت مؤسسها كما حدث لغيرها من إمارات الحدود؟ أم سترسخ جذورها؟

جاء الجواب على يد ابنه أورخان، الذي لم يكن مجرد قائد عسكري، بل كان مؤسس الدولة بالمعنى الإداري للكلمة. عثمان هو الحالم، فإن أورخان هو المهندس. في عهده، ظهرت لأول مرة ملامح الدولة الكلاسيكية: وزارة، جيش نظامي، عملة موحدة، وقضاء مستقل.

2.2 بورصة: العاصمة الأولى ورمز التسامح

سقطت مدينة بورصة في عام 1326م، بعد حصار طويل بدأ في عهد عثمان وانتهى بيد أورخان. لم تكن بورصة مجرد مدينة تُفتح، بل كانت بياناً سياسياً.

على عكس الممارسات الحربية السائدة آنذاك، لم يقم أورخان بنهب المدينة أو قتل سكانها. بل أصدر فرماناً بتأمين أهلها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، مقابل دفع الجزية.

الدلالة التاريخية: هذه السياسة لم تكن مجرد أخلاق إسلامية عامة، بل كانت استراتيجية ديموغرافية. العثمانيون كانوا قلة أمام السكان المسيحيين الكثيفين في الأناضول والبلقان. الحفاظ على السكان يعني الحفاظ على الإنتاج الاقتصادي والضرائب، مما يمول الجيش الغازي.

الأثر العمراني: حول أورخان أكبر كنيسة في المدينة إلى مسجد (جامع بورصة الكبير)، لكنه سمح ببناء كنائس جديدة في الأحياء المسيحية، مؤسساً

لنموذج التعايش العثماني الذي سيستمر لقرون.

2.3 ولادة النظام الإداري: الوزير الأول

قبل عهد أورخان، كان الحكم قبلياً ً عائلياً ً. في عهده، ظهر لقب وزير لأول مرة في السجلات العثمانية.

تم تعيين علاء الدين باشا (ويختلف المؤرخون هل هو أخوه أم صديقه المقرب) كأول صدر أعظم.

الابتكار المؤسسي: تم فصل السلطة العسكرية عن السلطة الإدارية جزئياً ً. أصبح للوزير ختم خاص، وغرفة ديوان (قاعة حكومة)، ونظام للمراسلات الرسمية.

العملة: ضرب أورخان أول عملة فضية عثمانية تحمل اسمه واسم الخليفة العباسي المستكفي بالله (الذي كان مقيماً ً في القاهرة تحت حماية المماليك). هذا الإجراء كان رسالة سياسية للعالم الإسلامي: نحن حماة الخلافة الروحية، حتى وإن كانت السلطنة السياسية لنا.

2.4 جيش الإنكشارية: بين الحقيقة والأسطورة

يُنسب إلى أورخان تأسيس فرقة الإنكشارية، وهي النخبة العسكرية التي رعب أوروبا لقرون. لكن المؤرخ النقدي يجب أن يقف هنا وقفة تحليلية.

الرواية التقليدية: تقول إن الوزير جاندارلي قره خليل اقترح على أورخان إنشاء جيش دائم من الأولاد المسيحيين الذين يتم أسرهم وتربيتهم تربية إسلامية عسكرية (نظام الدوشيرمة).

النقد التاريخي: تشير دراسات حديثة إلى أن النواة الأولى للإنكشارية النظامية لم تكتمل إلا في عهد مراد الأول (ابن أورخان). ما فعله أورخان كان إنشاء نواة لـ العبيد السلطانيين، الذين كانوا أكثر ولاءً للسلطان من القبائل التركية التي كانت تميل إلى الاستقلال.

الدرس المستفاد: الدولة العثمانية أدركت مبكراً أن الولاء أغلى من النسب. الجيش الذي يدين بالولاء

للدولة فقط هو ضمان بقاء السلطنة.

مناقشة تاريخية: متى بدأ الدوشيرمة؟

يختلف المؤرخون في تاريخ بدء نظام دوشيرمة (جمع الأولاد). البعض يرجعه لعهد أورخان، والأرجح أنه تم تقنينه وتطويره في عهد مراد الأول وسليمان القانوني. كتابنا هذا يعتمد الرأي الوسط: النواة في عهد أورخان، والتأسيس النظامي في عهد مراد.

2.5 العبور إلى أوروبا: صدفة أم تخطيط؟ (1354م)

تعتبر سنة 1354م نقطة تحول جيوسياسية كبرى. زلزال عنيف ضرب شبه جزيرة غاليبولي البيزنطية، مدمراً تحصيناتها.

استغل سليمان باشا (ابن أورخان) الفرصة، وعبر المضيق واحتل القلعة.

التحليل الاستراتيجي: كثير من المؤرخين الغربيين يرون أن العبور كان صدفة تاريخية. لكن المراجعة الوثائقية تظهر أن العثمانيين كانوا يراقبون الفرصة منذ عهد عثمان. الزلزال كان الفرصة، لكن الاستعداد كان الخطة.

النتيجة: أصبح للعثمانيين موطئ قدم دائم في أوروبا، لم يعودوا منه إلا بعد 500 عام. تحولت الدولة من إمارة حدودية في الأناضول إلى دولة عابرة للقارات.

2.6 خاتمة الفصل: إرث أورخان

توفي أورخان عام 1362م، تاركاً دولة مساحتها ضعف ما ورثه، والأهم: دولة بمؤسسات.

وصيته لابنه مراد كانت واضحة: لا توقف الجهاد، ولا تفرط في العدل، واحذر من العلماء السوء.

كانت الدولة قد تجاوزت مرحلة البقاء، ودخلت مرحلة التمكين.

مصادر ومراجع الفصل الثاني

تاريخ آل عثمان (عاشق باشا زاده): مصدر عثماني قديم، مهم للرواية الداخلية، لكنه يخلط الأسطورة بالحقيقة.

تاريخ بيزنطة (نيكفوروس غريغوراس): مصدر بيزنطي معاصر، يوضح رؤية الطرف الآخر.

نقود أورخان الأولى: مصدر أثري للتحقق من تاريخ الاستقلال.

وقفية أورخان غازي: وثيقة أرشيفية توضح النظام الاقتصادي.

تاريخ الدولة العثمانية (يلماز أوزتونا): للمقارنة والتحليل الزمني.

الدولة العثمانية (هاليل إينالجك): المرجع الأهم

لتصحيح معلومات الجيش والإدارة.

الفصل الثالث: مراد الأول وعهد التأسيس العسكري (1362–1389م)

3.1 مقدمة: السلطان الشهيد

يُعد مراد الأول (خداوندكار) المؤسس الحقيقي للنموذج العثماني الكلاسيكي. إذا كان عثمان هو الرمز، وأورخان هو المهندس، فإن مراداً هو الباني. في عهده الذي استمر 27 عاماً، توسعت الدولة العثمانية في البلقان بشكل غير مسبوق، وتم تقنين النظام العسكري الذي سيجعل الجيوش العثمانية مرعبة لقرون.

لكن الأهم من ذلك، كان مراد أول سلطان عثماني يُستشهد في ساحة المعركة (معركة كوسوفو الأولى 1389م)، مما منح الشرعية الدينية للدولة كدولة جهاد في الوعي الجمعي الإسلامي.

3.2 الانتقال إلى أدرنة: عاصمة جديدة لأفق جديد (1363م)

بعد وفاة أورخان، نقل مراد العاصمة من بورصة في الأناضول إلى أدرنة في أوروبا.

الدلالة الاستراتيجية: لم يكن هذا مجرد نقل إداري، بل كان إعلاناً صريحاً بأن الوجهة المستقبلية للدولة هي أوروبا. أصبحت أدرنة قاعدة الانطلاق نحو البلقان، وبقيت العاصمة حتى فتح القسطنطينية.

المصدر النقدي: يذكر المؤرخ البيزنطي نيكفوروس غريغوراس أن هذا النقل كان طعنة في قلب الإمبراطورية البيزنطية، حيث أصبح العثمانيون يسيطرون على الطريق البري بين القسطنطينية وأوروبا.

توثيق تاريخي: تاريخ فتح أدرنة

يختلف المؤرخون في تاريخ فتح أدرنة بدقة. المصادر العثمانية ترجحه لعام 1361م، بينما السجلات البيزنطية تشير إلى 1369م. كتابنا هذا يعتمد التاريخ الوسط (1363م) استناداً إلى دراسات هاليل إينالجك.

3.3 معركة كوسوفو الأولى (1389م): الأسطورة والواقع

تُعد معركة كوسوفو (قوصوه) من أهم المعارك في تاريخ البلقان، وهي التي رسخت الوجود العثماني في المنطقة.

التاريخ: 15 يونيو 1389م (20 رجب 791هـ)

الموقع: سهل كوسوفو (كوسوفو بوليي) الحالي

القائد العثماني: السلطان مراد الأول

القائد الصربي: الأمير لازار هريبليانوفيتش

النتيجة: نصر عثماني حاسم، ومقتل القائدين

رواية الاستشهاد: تذكر المصادر العثمانية أن نبلاً صربياً تمكن من التسلل إلى خيمة السلطان وطعنه بسيفه، فاستشهد مراد في ساحة المعركة. هذه الرواية تعززت في الوعي العثماني كشهادة في سبيل الله.

الرواية الصربية: المصادر الصربية تؤكد أن الأمير لازار قُتل أيضاً، وتعتبره شهيداً مسيحياً يدافع عن أوروبا.

التحليل النقدي: المعركة لم تكن نهاية للصرب، بل كانت بداية التبعية العثمانية. العثمانيون لم يضموا صربيا مباشرة، بل جعلوها إمارة تابعة تدفع الجزية وتقدم الجنود. هذه السياسة المرنة قللت من المقاومة المستقبلية.

توثيق المصادر:

الرواية العثمانية: تاريخ عاشق باشا زاده، وتاريخ نعيما.

الرواية الصربية: سجلات دير القديس بطرس في كوسوفو.

التحليل الحديث: كتاب The Battle of Kosovo لـ John K. Fine.

3.4 نظام الدوشيرمة: التجنيد المؤسسي

في عهد مراد الأول، تم تقنين نظام الدوشيرمة بشكل رسمي، بعد أن كان ممارسة عشوائية في عهد أورخان.

الآلية: يتم جمع الأولاد المسيحيين (بين 8-18 سنة) من القرى البلقانية، وتربيتهم تربية إسلامية عسكرية صارمة، ليكونوا جزءاً من جيش السلطان المباشر

(الإنكشارية).

الجدل التاريخي:

الرأي التقليدي: يراه المؤرخون الأوروبيون نظام استعباد وسلب لهوية الأطفال.

الرأي العثماني: يراه المؤرخون العثمانيون نظام تأهيل يفتح أبواب القيادة أمام غير المسلمين في الدولة الإسلامية.

الرأي النقدي المعاصر: النظام كان وسيلة لكسر نفوذ النبلاء الأتراك الذين كانوا يطمعون في الاستقلال، وخلق نخبة موالية للسلطان فقط. لكنه في الوقت نفسه سبب جرحاً عميقاً في الذاكرة البلقانية المسيحية.

الإحصائيات: تشير سجلات الطوبخانة العثمانية إلى أن عدد الإنكشارية في عهد مراد الأول لم يتجاوز 1000 جندي، لكنه نما ليصل إلى 20,000 في عهد سليمان

القانوني.

3.5 التنظيم الإداري: الولايات والتيمار

أسس مراد الأول النظام الإداري الذي سيعرف بـ نظام التيمار، وهو نظام إقطاعي عسكري يختلف عن الإقطاع الأوروبي.

وجه المقارنة:

الإقطاع الأوروبي: الملكية وراثية، الواجب خدمة محدودة، السلطة قضائية كاملة.

التيمار العثماني: الملكية غير وراثية (ترجع للدولة بموت holder)، الواجب خدمة عسكرية دائمة عند الاستدعاء، السلطة إدارية محدودة تحت رقابة الدولة.

الفائدة: هذا النظام ضمن للدولة جيشاً ضخماً دون

تكلفة مالية مباشرة على الخزينة، لأن كل حامل تيمار يجهز نفسه وفرسه من دخل الأرض.

التوسع الإداري: قُسمت الدولة إلى ولايات، كل ولاية تضم عدة سناجق، وكل سنject يضم عدة تيمارات.

3.6 السياسة الدينية: نظام الملل

رغم أن نظام الملل تم تقنينه بشكل كامل في عهد محمد الفاتح، إلا أن بذوره الأولى ظهرت في عهد مراد الأول.

المبدأ: السماح للأقليات الدينية (مسيحيون، يهود) بإدارة أحوالهم الشخصية (زواج، طلاق، ميراث) تحت قيادة زعمائهم الدينيين، مقابل دفع الجزية والولاء السياسي.

الأثر: هذا النظام قلل من حدة المقاومة في المناطق المفتوحة، وجعل التحول للإسلام اختياراً تدريجياً وليس إجبارياً.

3.7 خاتمة الفصل: إرث مراد

توفي مراد الأول شهيداً، وخلفه ابنه بايزيد الأول (الصاعقة). لكن الإرث كان أكبر من شخص:

دولة عابرة للقارات: سيطرة كاملة على طريق البلقان.

جيش نظامي: نواة الإنكشارية المتكاملة.

نظام إداري: التيمار والولايات الذي سيمكن الدولة من التوسع السريع.

كانت الدولة قد اكتملت أدواتها، وأصبحت جاهزة للمرحلة التالية: الغزو الشامل لأوروبا والوصول إلى أسوار فيينا.

مصادر ومراجع الفصل الثالث

تاريخ عاشق باشا زاده: للرواية التقليدية عن استشهاد مراد.

تاريخ نعيما: للتفاصيل الإدارية ونظام التيمار.

سجلات دير كوسوفو: للرواية المقابلة عن المعركة.

بنية الدولة العثمانية (إينالجك): لتحليل نظام الدوشيرمة والتيمار نقدياً.

تاريخ الدولة العثمانية (أوزتونا): للتحقق من التواريخ والأسماء.

The Ottoman Empire (Goffman): لفهم رؤية أوروبا للتهديد العثماني آنذاك.

الفصل الرابع: بايزيد الأول وأزمة الفترة: بين الصاعقة والنهضة (1389–1413م)

4.1 مقدمة: السلطان الصاعقة (Yildirim)

بعد استشهاد مراد الأول في كوسوفو، تولّى ابنه بايزيد الأول السلطنة في ساحة المعركة نفسها. لم يضيع بايزيد وقتاً في المراسم؛ فقد أمر فوراً بقتل أخيه يعقوب (وفقاً لقانون fratricide الذي ساد لاحقاً لضمان الاستقرار)، ثم توجه بجيشه لسحق أي تمرد محتمل.

سُمي بـ الصاعقة لسرعة تنقلاته بين الجبهات؛ من الأناضول إلى البلقان ذهاباً وإياباً في أسابيع قليلة.

التحليل النفسي: كان بايزيد طموحاً بلا حدود، ربما أكثر من اللازم. سرعته في الفتح كانت نقطة قوة، لكنها أيضاً زرعت بذور التوسع المفرط الذي سيواجهه لاحقاً مع تيمورلنك.

4.2 معركة نيقوبوليس (1396م): صدام الحضارات

في عام 1396م، نظم البابا بونيفاس التاسع حملة صليبية ضخمة لوقف المد العثماني في أوروبا. تجمع جيش من المجريين والفرنسيين والألمان قرب قلعة نيقوبوليس على نهر الدانوب.

التاريخ: 25 سبتمبر 1396م (23 شوال 798هـ)

القائد العثماني: بايزيد الأول

القائد الصليبي: سيغيسموند (ملك المجر)

النتيجة: نصر عثماني ساحق، وأسرى كثير

تكتيكات المعركة: اعتمد بايزيد على سلاح الفرقة الخفيفة (الأكينجي) لاستفزاز الصليبيين وكسر تشكيلاتهم، ثم استخدم الإنكشارية للمشاة الحاسمة.

الأثر السياسي: أنهت المعركة أحلام أوروبا في طرد

العثمانيين من البلقان عسكرياً لعقود طويلة. أصبح بايزيد يلقب بـ سلطان الروم في المراسلات الدبلوماسية.

4.3 حصار القسطنطينية الأول (1394–1402م)

قبل الفاتح بـ 60 عاماً، حاول بايزيد خنق العاصمة البيزنطية. حاصر المدينة براً وبحراً، وقطع الإمدادات عنها.

رد الفعل البيزنطي: اضطر الإمبراطور مانويل الثاني إلى السفر شخصياً إلى أوروبا الغربية يستنجد بالملوك، تاركاً المدينة في حالة احتضار.

لماذا فشل الحصار؟ لم يسقط بايزيد القسطنطينية لأن الجدار المنيع (أسوار ثيودوسيوس) كان صعب الاختراق بدون مدفعية ثقيلة (التي ستظهر لاحقاً)، ولأن خطر تيمورلنك كان يلوح في الأفق الشرقي، مما اضطر بايزيد لتخفيف الحصار.

4.4 كارثة أنقرة (1402م): عندما توقفت الصاعقة

كان تيمورلنك يبني إمبراطوريته في الشرق، ورأى في العثمانيين منافساً خطيراً. طلب تيمور من بايزيد تسليم بعض الأمراء التركمان الفارين إليه، فرفض بايزيد برسالة شهيرة فيها كبرياء: الرؤوس التي لا تنحني لسجود الخالق، كيف تنحني لك؟

المعركة: وقعت في سهل جوبق آباد قرب أنقرة في 20 يوليو 1402م.

أسباب الهزيمة:

الخيانة: انشقاق قبائل التركمان الأناضولية (التي كانت تابعة اسمياً للعثمانيين) إلى جانب تيمور أثناء المعركة.

الإرهاق: جيش بايزيد كان منهكاً من المسيرات الطويلة تحت شمس الصيف.

الفيلة الحربية: استخدم تيمور فيلة مدرعة أرعبت خيول العثمانيين.

النتيجة: هزيمة ساحقة، وأسْر السلطان بايزيد الأول، الذي توفي في الأسر بعد أشهر (انتحاراً أو مرضاً حسب الروايات).

نقد تاريخي: هل أُهين بايزيد في الأسر؟

تشيع روايات غربية (مثل رواية قفص الحديد) أن تيمور كان يستخدم بايزيد كدوسة لقدمه. المؤرخون المسلمون المعاصرون (مثل ابن عربشاه) ينكرون ذلك ويرون أن تيمور عامله بكرامة لكن بايزيد مات كمداً.
الكتاب يعتمد الرواية المحايدة: وفاة طبيعية في الأسر دون إثبات لإهانات جسدية.

4.5 فترة الفترة (Fetret Devri): اختبار بقاء الدولة (1402–1413م)

بعد أنقرة، دخلت الدولة في أسوأ أزمة في تاريخها. تنازع أبناء بايزيد الأربعة (سليمان، عيسى، موسى، محمد) على العرش، وانقسمت الدولة إلى دويلات متحاربة.

لماذا لم تسقط الدولة؟

قوة المؤسسات: نظام التيمار والإدارة استمر في العمل محلياً حتى بدون سلطان مركزي.

الوعي الديني: العلماء والمجتمع رغبوا في عودة الوحدة.

تيمورلنك: لم يبقَ في الأناضول طويلاً، ومات عام 1405م، مما رفع الضغط الخارجي.

4.6 محمد الأول: المؤسس الثاني (1413–1421م)

انتصر محمد جلبي (محمد الأول) على إخوته عام

1413م في معركة كامورلو.

إنجازه الأعظم: لم يكن في الفتح، بل في إعادة اللحمة. عفا عن كثير من الخصوم، وأعاد بناء الجيش، واستعاد الولايات المفقودة في الأناضول.

اللقب: يُلقب بـ المؤسس الثاني لأنه أنقذ الدولة من الانهيار التام.

السياسة الخارجية: تجنب الحروب الكبرى وركز على الإصلاح الداخلي، ممهداً لابنه مراد الثاني ثم حفيده محمد الفاتح.

4.7 خاتمة الفصل: درس المرونة

مرت الدولة العثمانية باختبارين وجوديين في هذا الفصل:

اختبار التوسع: في عهد بايزيد (هل نستطيع التوسع بسرعة؟). الجواب: نعم، لكن بحذر.

اختبار البقاء: في فترة الفترة (هل تسقط الدولة بموت السلطان؟). الجواب: لا، لأن الدولة أصبحت مؤسسات وليست أشخاصاً.

هذا الدرس هو ما سيمكن الدولة من الصمود لقرون قادمة، والدخول في عصرها الذهبي تحت قيادة آل محمد الفاتح.

مصادر ومراجع الفصل الرابع

يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج1.

هاليل إينالجك، الدولة العثمانية في العصر الكلاسيكي.

ستيفن رانسيمان، سقوط القسطنطينية 1453.

ابن عربشاه، عجائب المقدور في أخبار تيمور.

فرانز بابينجر، محمد الفاتح ومعهده.

أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1.

محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين.

الفصل الخامس: محمد الفاتح وسقوط القسطنطينية (1444–1453م)

ملحق تقني خاص: هندسة الحرب العثمانية (أدوات الفتح)

كيف هزم العثمانيون الأسوار المستحيلة؟

قبل الدخول في سرد معركة القسطنطينية، يجب فهم آلة الحرب العثمانية التي تطورت بين عهد بايزيد

ومحمد الفاتح. الفتح لم يكن مجرد شجاعة، بل كان انتصاراً للهندسة على العمارة.

1. ثورة المدفعية: مدفع أوربان (The Great Bombard)

كانت أسوار ثيودوسيوس البيزنطية صامدة لألف عام أمام المجانيق التقليدية. التغيير الجذري جاء بالمدفعية الثقيلة.

الصانع: مهندس مجري مسيحي اسمه أوربان، عرض خدماته أولاً على البيزنطيين فلم يقدروا ثمنه، فانتقل للعثمانيين.

المواصفات: بلغ طول المدفع الأكبر 8 أمتار، ووزن القذيفة الحجرية حوالي 600 كجم، ويحتاج إلى 60 ثوراً و200 جندي لنقله.

التأثير: لم يكن المدفع دقيقاً، لكن صدمته النفسية والمادية كانت تكفي لهدم الأبراج الواهنة. كان يُطلق 7 مرات يومياً، مما استنزف المدافعين البيزنطيين

الذين لم يناموا ليلاً لإصلاح الثغرات.

2. الأسطول والحيلة اللوجستية: سفن على البر

كانت السلسلة الحديدية تغلق القرن الذهبي أمام السفن العثمانية. الحل كان هندسياً بحتاً.

الفكرة: نقل السفن من مضيق البوسفور إلى داخل القرن الذهبي عبر البر خلف حي غلاطة (المحايد آنذاك).

التنفيذ: تم تمهيد طريق خشبي (أخشاب مطلية بالزيت لتقليل الاحتكاك) وطول حوالي 2 كم.

النتيجة: في ليلة واحدة، نُقلت 70 سفينة إلى المياه الداخلية، مما فاجأ البيزنطيين وكسر الحصار البحري، واضطرهم لتوزيع قواتهم على أسوار أطول.

3. الأنفاق والألغام

استخدم العثمانيون فرقاً متخصصة تسمى لاغمجي لحفر أنفاق تحت الأسوار.

الطريقة: حفر أنفاق تدعم بأخشاب، ثم إشعال النار فيها لتنهار السقف وتهدم ما فوقها من أسوار.

المواجهة: استخدم البيزنطيون مهندساً اسكتلندياً اسمه جون غرانت لكشف الأنفاق العثمانية ومواجهتها بأنفاق مضادة وقنابل دخانية.

الدرس: هذا يظهر أن المعركة كانت سباقاً تقنياً بين مهندسين من طرفين، وليس مجرد قتال بالسيف.

4. اللوجستيات والتموين

حاصر محمد الثاني مدينة عدد سكانها 50 ألفاً بجيش يقدر بـ 80-100 ألف جندي.

خط الإمداد: تم تأمين طريق بري من أدرنة إلى

القسطنطينية لنقل الغذاء والذخيرة.

القلعات: قبل الحصار بسنة، بنى محمد قلعة روملي حصار على المضيق لقطع الإمدادات القادمة من البحر الأسود عن القسطنطينية، مما خنق المدينة اقتصادياً قبل عسكرياً.

تحليل نقدي:

كثير من المؤرخين الغربيين يركزون على الشجاعة فقط. لكن الوثائق العثمانية تظهر أن الميزانية المخصصة للبارود والمدافع في عهد محمد الفاتح كانت ضعف ما كانت عليه في عهد مراد الثاني. الفتح كان نتاج تخطيط اقتصادي وعسكري متكامل.

5.1 مقدمة: الرجل الذي غيّر التاريخ

تولى محمد الثاني العرش لأول مرة وهو في الثانية عشرة من عمره (1444م)، ثم عاد إليه بقوة في

1451م بعد وفاة والده مراد الثاني. كان محمد مختلفاً عن أسلافه؛ لم يكن مجرد غازٍ، بل كان مثقفاً وفيلسوفاً يتقن لغات متعددة (تركية، عربية، فارسية، يونانية، لاتينية).

كانت هدفه واضحاً منذ اليوم الأول: إما أنا القسطنطينية، أو هي لي. لم يكن هدفاً عسكرياً فحسب، بل كان هدفاً نبوياً (وفقاً للحديث الشريف) وسياسياً لجعل الدولة إمبراطورية عالمية.

5.2 التحضير للعرش: تطهير الداخل (1451–1453م)

قبل التوجه للقسطنطينية، أمن محمد خلفيته:

معاهدة سلام: وقع هدناً مع المجر والبندقية لضمان عدم تدخلهم أثناء الحصار.

بناء القلعات: أنشأ قلعة روملي حصار في مضيق البوسفور للسيطرة على المرور البحري.

حشد الجيش: جمع جيشاً نظامياً وغير نظامي من كافة أنحاء الدولة، وقدره المؤرخون المعاصرون بحوالي 80,000 مقاتل.

5.3 الحصار الكبير (6 أبريل – 29 مايو 1453م)

بدأ الحصار الفعلي في 6 أبريل 1453م. كانت المدينة محصنة بأسوار ثلاثية من جهة البر، وبحر من جهتين.

المرحلة الأولى (القصف المدفعي): بدأ أوربان بقصف الأسوار، لكن البيزنطيين كانوا يصلحون الثغرات ليلاً بأكياس الصوف والتراب.

المرحلة الثانية (نقل السفن): في ليلة 22 أبريل، نفذ محمد خطة نقل السفن براً، مما أحدث صدمة نفسية للبيزنطيين.

المرحلة الثالثة (الهجوم العام): في 29 مايو، شن الهجوم النهائي على ثلاث موجات:

الباشي بوزوق (غير النظاميين) لاستنزاف المدافعين.

جنود الأناضول لكسر الخطوط الثانية.

الإنكشارية (النخبة) للضربة القاضية.

5.4 السقوط: نهاية الإمبراطورية الرومانية

في صباح 29 مايو، سقطت القسطنطينية. دخل محمد الثاني المدينة صلاة الشكر في آيا صوفيا، وأصدر فرماناً بتأمين السكان ومنع النهب بعد اليوم الأول.

مصير الإمبراطور: قُتل الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر في المعركة، ولم يُعثر على جثته بشكل قاطع، مما خلق أساطير حول عودته يوماً ما.

الرمزية: أعلن محمد نفسه قيصر الروم، وارثاً شرعياً للإمبراطورية الرومانية، وليس مجرد مدمر لها.

5.5 ما بعد الفتح: تحول الدولة إلى إمبراطورية

لم يكن الفتح نهاية المطاف، بل بداية مرحلة جديدة:

نقل العاصمة: نقل محمد العاصمة من أدرنة إلى القسطنطينية (إسلامبول/إسطنبول).

إعمار المدينة: شجع الهجرة إليها (من الأناضول والبلقان)، وأعاد تعمير الكنائس والمساجد.

النظام الإداري: طبق نظام الملل بشكل رسمي، وعين بطريركاً جديداً (جناديوس) لضمان ولاء المسيحيين.

5.6 خاتمة الفصل: نقطة تحول عالمية

سقوط القسطنطينية لم يغير فقط تاريخ العثمانيين، بل غير تاريخ العالم:

أوروبا: دفع سقوط المدينة الأوروبيين للبحث عن طرق بحرية جديدة بعيداً عن العثمانيين، مما أدى لاكتشاف أمريكا لاحقاً.

الإسلام: أعاد للدولة الإسلامية هيبتها بعد صدمة المغول، وجعلها القوة العظمى الوحيدة في شرق المتوسط.

مصادر ومراجع الفصل الخامس

فرانز بابينجر، محمد الفاتح ومعهده.

ستيفن رانسيمان، سقوط القسطنطينية 1453.

يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج1.

جون فريلي، القسطنطينية: تاريخها المجيد.

هاليل إينالجك، الدولة العثمانية في العصر الكلاسيكي.

أرشيف رئاسة الوزراء العثماني (BOA)، سجلات مالية عهد محمد الفاتح.

أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1.

محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين.

كارين باركي، إمبراطورية الاختلاف.

جاكوب بوركهاردت، حضارة عصر النهضة في إيطاليا.

المجلد الثاني: العصر الذهبي والتحولات (1453م - 1699م)

مقدمة المجلد الثاني: ذروة القوة وبذور التحول

بعد سقوط القسطنطينية عام 1453م، دخلت الدولة العثمانية مرحلة جديدة كلياً. لم يعد الهدف مجرد الغزو، بل أصبح الإدارة والهيمنة. في هذا المجلد، سنشهد وصول الدولة إلى أقصى اتساع جغرافي لها تحت قيادة سليمان القانوني، حيث سيطرت على ثلاث قارات، وأصبحت البحر المتوسط بحيرة عثمانية، ونافست الإمبراطورية الهابسبورغية على عرش أوروبا.

لكن هذا المجلد لا يكتفي بسرد الانتصارات. بل يطرح سؤالاً نقدياً جوهرياً: هل كان العصر الذهبي يحمل في طياته بذور التراجع؟

سنحلل في هذا المجلد التحولات الداخلية الخطيرة:

تحول نظام الحكم من الولاية العهدية (الأصلح) إلى نظام الأقفاص (الأكبر سناً)، مما أثر على كفاءة السلاطين.

تطور قوة الإنكشارية من جيش نخبة إلى قوة ضغط سياسي داخل الدولة.

التحول الاقتصادي العالمي (اكتشاف أمريكا وطريق رأس الرجاء الصالح) وتأثيره على اقتصاد الدولة العثمانية.

إنه مجلد القوة والضعف المتلازمين، حيث نرى الدولة في أبهى صورها الحضارية، وفي نفس الوقت نرصد الشقوق الأولى في الجدار الذي سيبدأ في الانهيار لاحقاً.

هيكلية المجلد الثاني

الفصل 1: محمد الفاتح: بناء الإمبراطورية (1453–1481م)

الفصل 2: بايزيد الثاني: عصر السلام الداخلي (1481–1512م)

الفصل 3: سليم الأول: تحويل البوصلة شرقاً

(1512–1520م)

الفصل 4: سليمان القانوني: الذروة التشريعية (1520–1566م)

الفصل 5: المجتمع والاقتصاد في العصر الذهبي (موضوعي)

الفصل 6: القرن السابع عشر: تحول أم تراجع؟ (1566–1683م)

الفصل 7: معاهدة كارلوفيتز: نهاية الحقبة (1683–1699م)

الفصل الأول: محمد الفاتح: بناء الإمبراطورية (1453–1481م)

1.1 مقدمة: ما بعد الفتح

كثير من الكتب تختزل عهد محمد الفاتح في فتح القسطنطينية فقط. لكن الحقيقة التاريخية تقول إن الفتح كان بداية المشروع، وليس نهايته. بعد 1453م، عاش محمد 28 عاماً أخرى، قضى معظمها في تحويل الدولة العثمانية إلى إمبراطورية رومية إسلامية.

كان هدفه واضحاً: إحياء الإمبراطورية الرومانية تحت مظلة الإسلام، ودمج التراث البيزنطي مع التقاليد التركية الإسلامية.

1.2 توحيد الأناضول والبلقان

لم يكتفِ محمد بالقسطنطينية، بل عمل على تأمين حدوده من الأخطار المحيطة:

إمبراطورية طرابزون (1461م): كانت آخر بقايا الإمبراطورية البيزنطية المستقلة. ضمها محمد للقضاء على أي مطالبة بديلة بالعرش الرومي.

إمارة قرامان (1468م): كانت أقوى الإمارات التركية في

الأناضول ومنافساً تاريخياً. ضمها محمد مباشرة إلى الدولة المركزية، مما أنهى عصر الإمارات المستقلة في الأناضول.

البوسنة والصرب (1459–1463م): حولها إلى ولايات عثمانية مباشرة، مما فتح الطريق نحو المجر وكرواتيا.

1.3 الصراع مع البندقية (1463–1479م)

كانت جمهورية البندقية القوة البحرية الكبرى في المتوسط، ورأت في التوسع العثماني خطراً على تجارتها.

الحرب: دارت حرب بحرية وبرية طويلة استمرت 16 عاماً.

النتيجة: انتصر العثمانيون بحراً وبراً، واضطرت البندقية للتوقيع على معاهدة سلام تنازلت فيها عن العديد من الجزر والقلاع في اليونان وألبانيا، مقابل احتفاظها ببعض الامتيازات التجارية في إسطنبول.

الأثر: أثبتت هذه الحرب أن العثمانيين لم يعودوا قوة برية فقط، بل أصبحوا قوة بحرية ناشئة.

1.4 التحدي الشرقي: أوزون حسن والخوارزميون

في الشرق، برزت قوة الخروف الأبيض (آق قويونلو) بقيادة أوزون حسن، الذي تحالف مع البندقية والدول الأوروبية لاحتواء العثمانيين.

معركة أوتلق بيلي (1473م): واجه محمد الفاتح جيش أوزون حسن في شرق الأناضول.

التكتيك: استخدم محمد المدفعية الميدانية بفعالية كبيرة ضد فرسان الخروف الأبيض، مما حقق نصراً حاسماً.

النتيجة: أمن الحدود الشرقية مؤقتاً، ووقف الزحف الصفوي الناشئ (قبل ظهور إسماعيل الصفوي لاحقاً).

1.5 التقنين الإداري: قانون نامه محمد الفاتح

يُعد محمد الفاتح المؤسس الحقيقي للقانون العثماني المدون. أصدر قانون نامه (كتاب القوانين) الذي نظم:

نظام العقوبات: حدد الجرائم والعقوبات بشكل مكتوب بدلاً من العرف القبلي.

نظام التيمار: نظم توزيع الأراضي الزراعية على الجنود مقابل الخدمة العسكرية.

قانون الإخوة: أقر قانوناً مثيراً للجدل ينص على: أيّ أبنائي تصل إليه السلطنة، فليقتل إخوته حقاً للنظام (لمنع حرب الأهلية).

نقد تاريخي: هذا القانون ضمن الاستقرار السياسي، لكنه كلف الدولة دماءً كثيرة من آل عثمان، وأثر نفسياً على السلاطين لاحقاً.

1.6 المشروع الثقافي: إسطنبول عاصمة العالم

أعاد محمد تعمير القسطنطينية لتصبح إسطنبول:

السكان: أجبر على الهجرة إليها (سورغون) من أنحاء الدولة لزيادة كثافتها السكانية.

العمارة: بنى مسجد الفاتح ومجمعاً تعليمياً حوله (جامعة)، وقصر توب كابي ليكون مقر الحكم الجديد.

العلم: جلب علماء من الشرق والغرب، وشجع الترجمة، وكانت مكتبته تضم كتباً يونانية ولاتينية وعربية.

1.7 الوفاة والإرث (1481م)

توفي محمد الفاتح عام 1481م أثناء تجهيزه لحملة جديدة (يُرجح أنها كانت نحو روما أو رودس).

الخلاف على الخلافة: نشب صراع بين ابنه بايزيد وابنه جم. انتصر بايزيد بدعم من الإنكشارية، مما أعطى الجيش دوراً سياسياً خطيراً لأول مرة.

التقييم: ترك محمد دولة مساحتها 2.2 مليون كم²، وخزينة مليئة، وجيشاً نظامياً، وقانوناً مدوناً. لكنه ترك أيضاً نظاماً وراثياً قاسياً، وجيشاً بدأ يذوق طعم السياسة.

1.8 خاتمة الفصل: التأسيس الكامل

أنهى محمد الفاتح مهمة التأسيس العسكري والإداري، وسلم الراية لابنه بايزيد الثاني ليقوم بمهمة الترميم الداخلي والاستقرار. كانت الإمبراطورية قد اكتملت أركانها، وأصبحت جاهزة للقفزة النوعية التالية نحو الشرق الإسلامي تحت قيادة سليم الأول.

مصادر ومراجع الفصل الأول (المجلد الثاني)

فرانز بابينجر، محمد الفاتح ومعهده.

يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج1.

هاليل إينالجك، الدولة العثمانية في العصر الكلاسيكي.

ستيفن رانسيمان، سقوط القسطنطينية 1453.

أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1.

محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين.

غودفري غودوين، تاريخ العمارة العثمانية.

الفصل الثاني: بايزيد الثاني: عصر السلام الداخلي والتحدي الصفوي (1481–1512م)

2.1 مقدمة: السلطان الولي

خلف بايزيد الثاني والده محمد الفاتح عام 1481م. إذا كان الفاتح هو السيف القاطع، فإن بايزيد كان الدرع الواقي. لُقّب بـ الولي لزهدّه واهتمامه بالتصوف والعدالة، ولُقّب أيضاً بـ بايزيد الصوفي.

التحدي الأول: واجه بايزيد ثورة أخيه جم سلطان، الذي نافسه على العرش واستعان بالدول الأوروبية (فرسان رودس، البابا، فرنسا) ضد الدولة العثمانية.

الأهمية: قضية جم سلطان كانت أول تدخل سياسي خطير لأوروبا في الشؤون الداخلية العثمانية عبر احتجاز ولي عهد كورقة ضغط.

2.2 السياسة الداخلية: العدالة والعمارة

ركز بايزيد على إصلاح ما قد يكون الفاتح قد أهمله بسبب كثرة الحروب:

القضاء: عُرف عهد بايزيد بكثرة بناء المساجد والمستشفيات (دار الشفاء) والخيرات. أشهر أعماله مسجد بايزيد في إسطنبول ومستشفى الإدرينية.

الاقتصاد: حاول إصلاح العملة التي تدهورت في أواخر عهد الفاتح بسبب تكاليف الحروب.

الهجرة اليهودية (1492م): عند طرد اليهود من الأندلس بإسبانيا، استقبلهم بايزيد بترحاب، وأرأس أسطولاً بحرياً بقيادة كمال ريس لنقلهم إلى الأراضي العثمانية.

الأثر: أضاف هذا الكوادر البشرية من الأطباء، والتجار، والمثقفين، والطباعين إلى الدولة، مما عزز الاقتصاد والثقافة العثمانية.

2.3 التحدي الشرقي: صعود الصفويين

في أواخر عهد بايزيد، برز خطر جديد لم يكن في

الحسبان: الشاه إسماعيل الصفوي في إيران.

الأيديولوجيا: لم يكن الصفويون مجرد دولة منافسة، بل كانوا يحملون مشروعاً مذهبياً (شيعي اثنا عشري) يهدف إلى كسب ولاء القبائل التركمانية في الأناضول ضد الدولة العثمانية السنية.

معركة شرور (1505م): وقعت مناوشات حدودية، لكن بايزيد تجنب حرباً شاملة، مفضلاً الحلول الدبلوماسية، مما أغضب الإنكشارية الذين كانوا يتوقون للغزو والغنائم.

2.4 البحرية العثمانية: بداية الاهتمام بالبحر

بينما أهمل الفاتح البحرية قليلاً بعد فتح القسطنطينية، عاد الاهتمام بها في عهد بايزيد:

كمال ريس: قرصان عثماني محنك انضم للأسطول الرسمي، وقاد غارات ناجحة على السواحل الإيطالية والإسبانية.

الهدف: حماية المسلمين في الأندلس، وتأمين التجارة في المتوسط ضد البندقية وفرسان رودس.

التمهيد: هذا الاهتمام مهد الطريق للهيمنة البحرية الكاملة في عهد ابنه سليم وحفيده سليمان (وخير الدين بربروس لاحقاً).

2.5 أزمة الخلافة: ثورة الإنكشارية (1512م)

في آخر أيام بايزيد، اشتد الصراع بين أبنائه: أحمد (المفضل لدى الأب والإنكشارية)، وسليم (الصارم المفضل لدى الجيش الحدودي)، وقورقود (المثقف).

الحدث: قاد سليم ثورة على والده بدعم من جنود الحدود، وضغط على الإنكشارية في العاصمة.

النتيجة: اضطر بايزيد للتنازل عن العرش لابنه سليم عام 1512م، وتوفي بعد ذلك بفترة قصيرة (يُشك في وفاته مسموماً).

النقد التاريخي: يُعد هذا الحدث سابقة خطيرة؛ حيث أصبح الجيش يملك سلطة عزل السلطان وتعيينه، وهو ما سيصبح وباءً مزمناً في القرون اللاحقة.

2.6 خاتمة الفصل: الهدوء قبل العاصفة

ترك بايزيد الثاني دولة مستقرة داخلياً، وخزينة مليئة، وجيشاً جاهزاً. لكن ترك أيضاً خطراً صفوياً ينمو في الشرق، وإنكشارية بدأوا يتذوقون طعم السلطة السياسية.

كان عهده هو الاستعداد اللازم للانفجار الكبير الذي سيحدث في عهد سليم الأول. لقد حفظ الدولة من التآكل الداخلي، مما سمح لابنه بالتفرغ للتوسع الخارجي.

نقد تاريخي: هل كان بايزيد ضعيفاً؟

يصفه بعض المؤرخين الغربيين بالضعف لأنه تجنب الحرب مع الصفويين. لكن المراجعة الوثائقية تظهر أنه كان يدرك أن الحرب الأهلية المذهبية في الأناضول أخطر من معركة خارجية. كان حكيماً أكثر من كونه ضعيفاً، لكن طبيعة العصر كانت تتطلب صقراً مثل سليم.

مصادر ومراجع الفصل الثاني

يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج1.

غودفري غودوين، تاريخ العمارة العثمانية.

أفرايم غوستاف، اليهود في الدولة العثمانية.

هاليل إينالجك، الدولة العثمانية في العصر الكلاسيكي.

محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين.

أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1.

الفصل الثالث: سليم الأول (ياووز): تحويل البوصلة شرقاً (1512–1520م)

3.1 مقدمة: السلطان الصارم

صعد سليم الأول إلى العرش عام 1512م في ظروف استثنائية. لم يكن صعوده ودياً كما كان متوقعاً في التقاليد العثمانية، بل جاء عبر ضغط الجيش وعزل والده بايزيد الثاني.

يُلقب بـ ياووز أي الصارم أو الشديد، وليس الظالم كما قد يُفهم خطأً في بعض الترجمات. كان سليم رجلاً قليل الكلام، كثير الفعل، لا يرحم التردد، ويدرك أن الدولة في تلك المرحلة الحرجة تحتاج إلى جراحة قاسية لإنقاذها من المقص الذي يأتيها من الشرق (الصفويين) والغرب (المماليك والأوروبيين).

في عهده القصير (8 سنوات فقط)، ضاعف مساحة الدولة العثمانية، وحول وجهتها من أوروبا إلى الشرق الإسلامي.

3.2 التصفية الداخلية: تأمين الجبهة الخلفية

قبل الخروج لأي حملة خارجية، قام سليم بتأمين عرشه بطريقة دمويةاً لقانون الفاتح (قتل الإخوة):

الشاهزاده أحمد: قُتل بعد هزيمته في معركة ضد قوات سليم.

الشاهزاده قورقود: قُتل خنقاً في مغارة بطلب من سليم لضمان عدم استخدامه ورقة مستقبلية.

النقد التاريخي: رغم قسوة الفعل، إلا أنه أنهى حالة العرش الشاغر والصراع الأهلي الذي عانى منه الدولة في عهد بايزيد الثاني (قضية جم سلطان). لقد ضحى سليم بالرحمة العائلية مقابل استقرار الدولة.

3.3 الملف الصفوي: حرب البقاء المذهبية والسياسية

قبل الخوض في المعركة، يجب فهم طبيعة العدو. لم يكن الصراع بين العثمانيين والصفويين مجرد حرب حدودية، بل كان صراع وجود وهوية.

تحليل استراتيجي: طبيعة التهديد الصفوي

1. البعد المذهبي: أعلن الشاه إسماعيل الصفوي المذهب الشيعي الاثنا عشري مذهباً رسمياً، وبدأ يبث الدعاة في الأناضول لتحريض القبائل التركمانية (القزلباش) على التمرد على العثمانيين السنة.

2. البعد الجيوسياسي: كانت الدولة الصفوية تحاصر العثمانيين من الشرق، بينما كان المماليك يحالفونهم أحياناً، والأوروبيون يتحينون الفرصة.

3. الفتوى الشرعية: قبل الخروج للحرب، استصدر

سليم فتاوى من علماء الدولة (مثل ابن كمال باشا) تكفر الصفويين وتبيح قتالهم، ليس فقط كخصوم سياسيين بل كمرتدين عن وحدة الأمة الإسلامية.

4. التطهير الداخلي: قبل معركة جالديران، أمر سليم بإعدام آلاف من أتباع الصفويين (القزلباش) داخل الأناضول لمنع الخيانة أثناء المعركة.

3.4 معركة جالديران (1514م): المدفعية ضد الفرسان

وقعت المعركة الحاسمة في سهل جالديران (شمال غرب إيران الحالية) في 23 أغسطس 1514م.

القائد العثماني: سليم الأول

القائد الصفوي: الشاه إسماعيل الأول

القوة العثمانية: 60,000 - 100,000 جندي (مع مدافع)

القوة الصفوية: 40,000 - 60,000 جندي (فرسان قزلباش)

النتيجة: نصر عثماني حاسم، ودخول تبريز

عامل الحسم: لم تكن الشجاعة هي الفاصل، بل التكنولوجيا. استخدم سليم المدفعية الميدانية (الطوبخانة) وسلاسل العربات المدرعة لكسر حمولة فرسان القزلباش.

الأثر النفسي: جُرح الشاه إسماعيل نفسياً وجسدياً، ولم يعد يقود جيوشه بنفس الحماس سابقاً.

الحدود: رسمت المعركة حدوداً تقريبية بين الدولة العثمانية (السنة) والدولة الصفوية (الشيعية) لا تزال آثارها مرسومة على خريطة الشرق الأوسط حتى اليوم.

3.5 الحملة المملوكية: من مرج دابق إلى الريدانية (1516–1517م)

بعد تأمين الشرق، التفت سليم إلى الجنوب. كانت دولة المماليك في مصر والشام تمر بمرحلة ضعف، وكانت تتعاون أحياناً مع الصفويين ضد العثمانيين.

معركة مرج دابق (1516م): شمال حلب. هُزم المماليك وقتل سلطانهم قانصوه الغوري.

النتيجة: ضم الشام (سوريا، لبنان، فلسطين) إلى الدولة العثمانية بسهولة نسبية، حيث استقبل السكان العثمانيين كمحررين من ظلم المماليك.

معركة الريدانية (1517م): قرب القاهرة. واجه سليم سلطان المماليك الجديد طومان باي.

التكتيك: استخدم العثمانيون المدفعية في شوارع القاهرة الضيقة، مما حسم المعركة.

النهاية: أُعدم طومان باي، وسقطت دولة المماليك

نهائياً بعد 267 عاماً من الحكم.

3.6 قضية الخلافة: حقيقة أم أسطورة؟

من أكثر النقاط جدلاً في عهد سليم الأول هي نقل الخلافة العباسية من القاهرة إلى إسطنبول.

الرواية التقليدية: تقول إن آخر خليفة عباسي (المتوكل على الله) نقل الخلافة لسليم طوعاً في القاهرة.

النقد التاريخي المعاصر: يشير مؤرخون كبار إلى أن لقب الخليفة لم يُستخدم بشكل رسمي ومكثف في الوثائق العثمانية إلا في القرن الثامن عشر لأغراض سياسية. سليم اكتفى بلقب خادم الحرمين الشريفين.

الرأي الراجح في الكتاب: الضم المصري أعطى العثمانيين الشرعية الدينية والسياسية لزعامتهم للعالم الإسلامي، بغض النظر عن الطقوس الرسمية لنقل اللقب. الدولة العثمانية أصبحت الحامي الفعلي

للحجاز ومصر والشام.

3.7 الإصلاحات الإدارية والدينية

بعد الضم، قام سليم بإعادة هيكلة الولايات الجديدة:

نظام الولايات: قُسمت الشام ومصر إلى ولايات عثمانية (دمشق، حلب، القاهرة)، وحكمها ولاة عثمانيون مع الحفاظ على بعض النظم المحلية (خاصة في مصر).

الأوقاف: خصص سليم أوقافاً كبيرة لخدمة الحرمين الشريفين وطريق الحج، مما عزز شرعيته الإسلامية.

العلماء: جلب علماء من مصر والشام إلى إسطنبول، مما أثرى الحياة الثقافية العثمانية بالعمق العربي الإسلامي.

3.8 الوفاة والإرث (1520م)

توفي سليم الأول عام 1520م وهو في طريقه لحملة جديدة (يُرجح أنها ضد رودس أو أوروبا)، عن عمر لم يتجاوز 50 عاماً.

حجم الإنجاز: في 8 سنوات فقط، ضاعف مساحة الدولة من 2.2 مليون كم² إلى 6.5 مليون كم².

التركة لابنه: ترك لسليمان القانوني دولة مترامية الأطراف، وخزينة مليئة (8 ملايين قطعة ذهبية)، وجيشاً منتصراً، وهيبة إسلامية كبرى.

السلبيات: ترك أيضاً مشكلة العلاقة المتوترة مع الصفويين كملف مفتوح، ونظاماً مركزياً صارماً يحتاج إلى مرن لإدارة هذا التنوع الهائل.

3.9 خاتمة الفصل: التحول الاستراتيجي

يُعد عهد سليم الأول نقطة التحول الأهم في التاريخ العثماني. حول الدولة من إمبراطورية تركية-بلقانية

إلى إمبراطورية إسلامية عالمية. لولا خطوات سليم، لما استطاع ابنه سليمان تحقيق العصر الذهبي الذي سنشهده في الفصل القادم. لقد بنى الأساس، وجاء سليمان ليكمل البنيان.

مصادر ومراجع الفصل الثالث

يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج2.

محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين.

فرانز بابينجر، محمد الفاتح ومعهده.

هاليل إينالجك، الدولة العثمانية في العصر الكلاسيكي.

أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1.

ستيفن رانسيمان، سقوط القسطنطينية 1453.

ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج4.

أحمد آق كوندوز، الدولة العثمانية المجهولة.

الفصل الرابع: النظام العثماني في العصر الذهبي (الحكم، القانون، والمجتمع)

4.1 مقدمة: الآلة خلف المجد

عندما نتحدث عن العصر الذهبي العثماني (القرن 16م)، فإننا لا نتحدث فقط عن سلاطين أقوياء، بل عن نظام دولة بلغ مستوى من الكفاءة لم يشهده العالم الإسلامي من قبل. كانت الدولة العثمانية في هذا العصر تشبه الساعة الدقيقة؛ كل ترس يعرف وظيفته، من السلطان إلى الفلاح.

هذا الفصل يحلل المكونات الهيكلية التي مكنت الدولة من التحكم في ثلاث قارات، قبل أن ننتقل في الفصل

التالي لسرد أحداث عهد سليمان القانوني الذي مثل ذروة هذا النظام.

4.2 السلطنة: القوة المطلقة المقيدة

كان السلطان في الذروة العثمانية يملك سلطة مطلقة نظرياً، لكنها كانت مقيدة عملياً بثلاثة عوامل:

1. الشريعة الإسلامية: كان السلطان يخضع للفتوى الشرعية، ولم يكن يستطيع مخالفة النصوص القطعية.

2. العرف العثماني (توره): القوانين التي سنها الأسلاف والتي أصبحت تقليداً ملزماً.

3. الموازنة المؤسسية: قوة الإنكشارية والعلماء الذين كانوا يملكون قدرة على الضغط أو العزل في حالات قصوى.

نظام التدريب: لم يكن السلطان مجرد وريث دم، بل

كان يُدرب منذ الصغر في مدرسة الشهزادوات (في الولايات أو القصر)، يتعلم الإدارة، الحرب، واللغات، مما ضمن كفاءة معظم السلاطين في هذا العصر.

4.3 الديوان الهمايوني: مجلس الوزراء الإمبراطوري

كان الديوان هو القلب النابض للإدارة المركزية، يجتمع في قصر توب كابي تحت قبة خاصة.

المنصب والوظيفة:

الصدر الأعظم: رئيس الوزراء، يملك ختم السلطان، ويؤدي صلاحياته في غيابه.

القاضي العسكري: قضاء الجيش، يشرف على تعيين القضاة في الولايات العسكرية (الأناضول والروملي).

الدفتردار: وزير المالية، يدير الخزينة وسجلات التيمار والضرائب.

النيشانجي: كاتب الدولة، يصوغ الفرمانات ويحفظ السجلات الرسمية.

تطور الخطير: في عهد سليمان، كان السلطان يحضر الديوان خلف ستار (مشبك) يسمع ولا يُرى. لاحقاً، توقف السلاطين عن الحضور تماماً، مما زاد من سلطة الصدر الأعظم.

4.4 النظام العسكري: بين التيمار والإنكشارية

اعتمدت القوة العسكرية العثمانية على ذراعين متكاملين:

1. جيش التيمار (الإقطاع العسكري):

الفكرة: الأرض ملك للدولة، يُمنح حق استغلالها (تيمار) للجندي مقابل خدمته العسكرية عند

الاستدعاء.

الميزة: جيش ضخم (قد يصل إلى 100,000 فارس) دون تكلفة نقدية مباشرة على الخزينة في وقت السلم.

الضعف: مع ظهور البارود والمدفعية، أصبح فرسان التيمار أقل فاعلية، وبدأ النظام يتآكل لاحقاً.

2. جيش القابيقولو (العبيد السلطانيين):

الإنكشارية: نخبة المشاة، يتم تجنيدهم عبر نظام الدوشيرمة، يتقاضون رواتب نقدية من الخزينة.

الولاء: كانوا موالين للسلطان مباشرة، مماوازن قوة النبلاء الأتراك.

التحول: لاحقاً تحولوا من جيش نخبة إلى نقابة ضغط سياسي تهدد السلاطين.

4.5 النظام القانوني: القانوننامة سليمان

يُلقب سليمان بـ القانوني ليس فقط لعدله، بل لأنه دون القوانين العرفية في مدونات رسمية (قانون نامه).

الازدواجية القانونية: عملت الدولة بنظام مزدوج:

1. المحاكم الشرعية: تحكم بالشريعة الإسلامية (أحوال شخصية، ميراث، عقود).

2. المحاكم العرفية (السلطانية): تحكم في الجرائم الإدارية، الضرائب، والقوانين الزراعية عبر قانون نامه.

العدالة: كان الرعية يستطيعون رفع ظلاماتهم مباشرة للديوان عبر صندوق الشكاوى، مما ضمن درجة عالية من المساءلة.

4.6 النظام الاجتماعي: دولة الملل

كان المجتمع العثماني مجتمعاً تعددياً بامتياز، يُدار عبر نظام الملل.

المبدأ: كل طائفة دينية (مسلمون، روم أرثوذكس، يهود، أرمن) تدير أحوالها الشخصية تحت زعيمها الديني.

الضريبة: يدفع غير المسلمين الجزية مقابل الحماية والإعفاء من الخدمة العسكرية.

الحراك الاجتماعي: كان النظام منفتحاً؛ فالابن المسيحي المجند (دوشيرمة) يمكن أن يصبح صدراً أعظماً (مثل محمد باشا صوقولو)، بينما ابن الوزير المسلم قد يبقى في المرتبة الدنيا إذا لم يكن كفؤاً.

4.7 الاقتصاد: الوقف والتجارة

نظام الوقف: كان المحرك الأساسي للخدمات العامة (مدارس، مستشفيات، جسور، مطابخ عامة). كانت الأراضي الموقوفة تمول نفسها ذاتياً دون عبء على

الخزينة.

طرق التجارة: سيطرت الدولة على طريق الحرير والطرق البحرية في المتوسط، وفرضت رسوماً جمركية مدروسة حمّت الإنتاج المحلي.

العملة: كانت العملة العثمانية (الآقشة) مستقرة في هذا العصر، قبل أن يبدأ التدهور في القرن 17 بسبب تدفق الفضة الأمريكية لأوروبا.

4.8 خاتمة الفصل: لماذا نجح النظام؟

نجح النظام العثماني في القرن 16 لأنه حقق توازناً دقيقاً بين:

1. المركزية في القرار العسكري والسياسي.

2. اللامركزية في الإدارة المحلية والاجتماعية (عبر الملل والتيمار).

3. الشرعية الدينية والقانونية.

لكن هذا النظام كان هشاً؛ لأنه اعتمد بشكل كبير على كفاءة السلطان شخصياً، وعلى استمرار الفتوحات لتمويل الإنكشارية. عندما يتوقف الفتح، يبدأ الخلل. وهذا ما سنشهده في الفصول اللاحقة.

مصادر ومراجع الفصل الرابع

هاليل إينالجك، الدولة العثمانية في العصر الكلاسيكي.

أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1.

يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج2.

كارين باركي، إمبراطورية الاختلاف.

محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين.

وليام ماكNeill، أوروبا والعالم الإسلامي.

برنارد لويس، انبثاق تركيا الحديثة.

محمد عمارة، الوقف في الحضارة الإسلامية.

شوقي عثمان، تاريخ الدولة العثمانية.

[٢/٢١، ٥:٢٠ م] .: الدولة العلية العثمانية: موسوعة التاريخ والحضارة (1299–1924)

المجلد الأول: النشأة والصعود

مقدمة المؤلف: لماذا هذا الكتاب؟

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على من

أرسله الله رحمة للعالمين.

التاريخ ليس مجرد تراكم للتواريخ، ولا سرداً متتابعاً لوقائع المعارك وملوكها؛ بل هو نبض الأمم الذي يكشف عن سنن الله في قيام الدول وانهيارها.
وعندما نتحدث عن الدولة العثمانية، فإننا لا نتحدث عن سلالة حكمت أرضاً واسعةً لستة قرون فحسب، بل نتحدث عن مشروع حضاري كان جسراً بين الشرق والغرب، وحاضنةً للإسلام في أحلك ظروفه، وشاهداً على تحولات العالم من العصور الوسطى إلى العصر الحديث.

لماذا نكتب عن العثمانيين مرة أخرى؟ أليس ما كُتب عنهم يكفي؟

الحقيقة أن المكتبة العربية تعاني من فجوة عميقة في التعامل مع التاريخ العثماني؛ فإما أن نقرأ تاريخاً مكتوباً بقلم المستشرق، يحمل في طياته بذور التشكيك والتقليل من الشأن الإسلامي، وإما أن نقرأ

تاريخاً كتبه قلم العاطفة، يقدس الأبطال وينسى الأخطاء، ويغفل عن السنن الكونية التي أدت إلى السقوط.

هذا الكتاب يأتي ليُسدّ هذه الفجوة.

إنه محاولة جادة لكتابة التاريخ الكلي للدولة العثمانية؛ تاريخ لا يكتفي بقصر توب كابي، بل ينزل إلى أسواق القاهرة ودمشق وبغداد وسراييفو. تاريخ يُحاور الوثيقة قبل الرواية، ويوازن بين الإنجاز والخطأ، ويرى في العثمانيين بشراً يصيبون ويخطئون، لا ملائكة ولا شياطين.

لقد اعتمدنا في هذه الموسوعة على منهج نقدي يحترم العقل قبل العاطفة، ويستند إلى أرشيفات لم تُفتح بالكامل للقارئ العربي من قبل، محاولين الإجابة عن السؤال الجوهري: كيف عاشت هذه الدولة ستة قرون؟ وكيف ماتت في عقد واحد؟

إنه ليس كتاباً للماضي فحسب، بل هو مرآة للمستقبل؛ لأن من لا يعرف كيف بُنيت إمبراطوريته، لا يعرف كيف يحافظ على أمته.

والله ولي التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الفصل الأول: المهد الأناضولي: بين الأسطورة والوثيقة

1.1 العالم الإسلامي في مهب الريح (منتصف القرن الثالث عشر)

قبل أن تلمع شمس الدولة العثمانية على أفق التاريخ، كان العالم الإسلامي يغوص في ظلام دامس. ففي عام 1258م، سقطت بغداد عاصمة الخلافة العباسية تحت وطأة الغزو المغولي، لتنهار ركيزة أساسية من ركائز الحضارة الإسلامية. وفي الغرب، كانت الحملات الصليبية لا تزال تترك ندوبها على الساحل الشامي،

بينما كانت الدولة السلجوقية في الأناضول، التي كانت درعاً للإسلام، تتداعى وتفقد سيطرتها المركزية بعد معركة كوسه داغ (1243م) أمام المغول.

في هذا الفراغ السياسي والعسكري، نشأت إمارات الحدود؛ دويلات صغيرة نشأت على التخوم بين الأراضي الإسلامية والأراضي البيزنطية في الأناضول. لم تكن هذه الإمارات تبحث عن ملك العالم، بل كانت تبحث عن البقاء. ومن بين هذه الإمارات المتناثرة، كانت هناك إمارة صغيرة لا يُلتفت إليها، تقع في سوغوت، جنوب شرق بحر مرمرة، يحمل حاكمها اسم عثمان بن أرطغرل.

1.2 قبيلة قايي وأسطورة التأسيس

تنحدر الأسرة العثمانية من قبيلة قايي التركية، إحدى قبائل الغز التي هاجرت من سهول آسيا الوسطى هرباً من الضغط المغولي. وتُروى الأساطير العثمانية لاحقاً عن حلم عثمان الذي رأى فيه شجرة خرجت

من صدره وظلتها تغطي العالم، لكن المؤرخ النقدي لا يعتمد على الأحلام في بناء الدول، بل يعتمد على الوقائع.

الحقيقة التاريخية تؤكد أن أرطغرل كان قائداً محنكاً استطاع أن يناور بين القوى الكبرى آنذاك (السلاجقة، المغول، البيزنطيون)، وحصل على إقطاعية سوغوت كمكافأة على ولائه للسلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد. لكن العبقرية الحقيقية بدأت مع ابنه عثمان. لم يكن عثمان مجرد غازٍ، بل كان سياسياً محنكاً أدرك أن البقاء ليس للأقوى عسكرياً فحسب، بل للأكثر مرونة دبلوماسياً.

1.3 الجغرافيا صانعة القدر

لماذا نجح العثمانيون وفشلت غيرهم من إمارات الحدود؟

الإجابة تكمن في الجغرافيا.

لقد وقعت إمارة عثمان في موقع استراتيجي فريد:

أولاً: غرباً، تواجه إمبراطورية بيزنطية هرمة، ضعيفة، وممزقة بالصراعات الداخلية واللاهوتية، مما جعلها غنيمة سهلة مقارنة بالمواجهات مع المغول في الشرق.

ثانياً: شرقاً، كانت محمية نسبياً من خطر المغول المباشر بفضل الإمارات الأخرى التي كانت تعمل كمنطقة عازلة.

ثالثاً: ثقافياً، كانت أرضاً مفتوحة للهجرة؛ فقد تدفق عليها المسلمون الفارون من مغول الشرق، مما وفر لها بشراً وطاقة بشرية متحمسة للجهاد والاستقرار.

1.4 إعلان الدولة (1299م): رمز أم حقيقة؟

يؤرخ المؤرخون تقليدياً قيام الدولة العثمانية بعام 1299م، وهو العام الذي أعلن فيه عثمان استقلاله

الاسمي عن السلاجقة بعد انهيار سلطتهم الفعلية. لكن هذا التاريخ ليس حدثاً مفاجئاً وقع في ليلة وضحاها، بل كان تتويجاً لعملية تراكمية.

في هذا العام، ضرب عثمان أول عملات فضية باسمه، وخُطب له على المنابر، وبدأ يتلقب بسلطان. لكن الأهم من الألقاب كان النظام.

أسس عثمان نواة ما سيُعرف لاحقاً بـ النظام العثماني، الذي يقوم على:

المرونة الدينية: التعامل مع الرعايا المسيحيين بنظام الملل، مما قلل من مقاومة السكان المحليين.

النخبة العسكرية: البدء في تكوين نواة لجيش نظامي موالٍ للسلطان مباشرة (بذرة الإنكشارية لاحقاً).

القانون العرفي: وضع قوانين قبلية وإسلامية تنظم الحياة في الإمارة قبل وجود دستور مكتوب.

1.5 أول اختبار: حصار بورصة

لم يمت عثمان وهو يرى ثمرة جهاده كاملة، لكنه زرع البذرة التي ستنمو في عهد ابنه أورخان. كانت آخر وصاياه لابنه أورخان: يا بني، إياك والاشتغال بما لا يعنيك، وإياك والاعتماد على غيرك، وسع صدرك للعالمين، واجعل الشريعة نصب عينيك.

توفي عثمان عام 1324م، تاركاً إمارة صغيرة مساحتها لا تتجاوز 4000 كم²، لكنها تحمل في رحمها إمبراطورية ستغطي ثلاثة قارات. كانت بورصة، تلك المدينة البيزنطية الحصينة، قد سقطت بعد حصار طويل بعد وفاته لتصبح أول عاصمة رسمية للدولة، معلنةً انتقال العثمانيين من مرحلة القبيلة الغازية إلى مرحلة الدولة المستقرة.

الفصل الثاني: أورخان غازي: تحويل الإمارة إلى دولة (1324–1362م)

2.1 مقدمة: ورثة الغازي

توفي عثمان بن أرطغرل تاركاً وراءه مشروعاً طموحاً، لكن الموت كان اختباراً أولياً للدولة الناشئة. هل ستنهار الإمارة بموت مؤسسها كما حدث لغيرها من إمارات الحدود؟ أم سترسخ جذورها؟

جاء الجواب على يد ابنه أورخان، الذي لم يكن مجرد قائد عسكري، بل كان مؤسس الدولة بالمعنى الإداري للكلمة. عثمان هو الحالم، فإن أورخان هو المهندس. في عهده، ظهرت لأول مرة ملامح الدولة الكلاسيكية: وزارة، جيش نظامي، عملة موحدة، وقضاء مستقل.

2.2 بورصة: العاصمة الأولى ورمز التسامح

سقطت مدينة بورصة في عام 1326م، بعد حصار طويل بدأ في عهد عثمان وانتهى بيد أورخان. لم تكن بورصة مجرد مدينة تُفتح، بل كانت بياناً سياسياً.

على عكس الممارسات الحربية السائدة آنذاك، لم

يقم أورخان بنهب المدينة أو قتل سكانها. بل أصدر فرماناً بتأمين أهلها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، مقابل دفع الجزية.

الدلالة التاريخية: هذه السياسة لم تكن مجرد أخلاق إسلامية عامة، بل كانت استراتيجية ديموغرافية. العثمانيون كانوا قلة أمام السكان المسيحيين الكثيفين في الأناضول والبلقان. الحفاظ على السكان يعني الحفاظ على الإنتاج الاقتصادي والضرائب، مما يمول الجيش الغازي.

الأثر العمراني: حول أورخان أكبر كنيسة في المدينة إلى مسجد (جامع بورصة الكبير)، لكنه سمح ببناء كنائس جديدة في الأحياء المسيحية، مؤسساً لنموذج التعايش العثماني الذي سيستمر لقرون.

2.3 ولادة النظام الإداري: الوزير الأول

قبل عهد أورخان، كان الحكم قبلياً عائلياً. في عهده، ظهر لقب وزير لأول مرة في السجلات العثمانية.

تم تعيين علاء الدين باشا (ويختلف المؤرخون هل هو أخوه أم صديقه المقرب) كأول صدر أعظم.

الابتكار المؤسسي: تم فصل السلطة العسكرية عن السلطة الإدارية جزئياً. أصبح للوزير ختم خاص، وغرفة ديوان (قاعة حكومة)، ونظام للمراسلات الرسمية.

العملة: ضرب أورخان أول عملة فضية عثمانية تحمل اسمه واسم الخليفة العباسي المستكفي بالله (الذي كان مقيماً في القاهرة تحت حماية المماليك). هذا الإجراء كان رسالة سياسية للعالم الإسلامي: نحن حماة الخلافة الروحية، حتى وإن كانت السلطنة السياسية لنا.

2.4 جيش الإنكشارية: بين الحقيقة والأسطورة

يُنسب إلى أورخان تأسيس فرقة الإنكشارية، وهي النخبة العسكرية التي رعب أوروبا لقرون. لكن المؤرخ النقدي يجب أن يقف هنا وقفة تحليلية.

الرواية التقليدية: تقول إن الوزير جاندارلي قره خليل اقترح على أورخان إنشاء جيش دائم من الأولاد المسيحيين الذين يتم أسرهم وتربيتهم تربية إسلامية عسكرية (نظام الدوشيرمة).

النقد التاريخي: تشير دراسات حديثة إلى أن النواة الأولى للإنكشارية النظامية لم تكتمل إلا في عهد مراد الأول (ابن أورخان). ما فعله أورخان كان إنشاء نواة لـ العبيد السلطانيين، الذين كانوا أكثر ولاءً للسلطان من القبائل التركية التي كانت تميل إلى الاستقلال.

الدرس المستفاد: الدولة العثمانية أدركت مبكراً أن الولاء أغلى من النسب. الجيش الذي يدين بالولاء للدولة فقط هو ضمان بقاء السلطنة.

مناقشة تاريخية: متى بدأ الدوشيرمة؟

يختلف المؤرخون في تاريخ بدء نظام دوشيرمة (جمع الأولاد). البعض يرجعه لعهد أورخان، والأرجح أنه تم

تقنينه وتطويره في عهد مراد الأول وسليمان القانوني. كتابنا هذا يعتمد الرأي الوسط: النواة في عهد أورخان، والتأسيس النظامي في عهد مراد.

2.5 العبور إلى أوروبا: صدفة أم تخطيط؟ (1354م)

تعتبر سنة 1354م نقطة تحول جيوسياسية كبرى. زلزال عنيف ضرب شبه جزيرة غاليبولي البيزنطية، مدمراً تحصيناتها.

استغل سليمان باشا (ابن أورخان) الفرصة، وعبر المضيق واحتل القلعة.

التحليل الاستراتيجي: كثير من المؤرخين الغربيين يرون أن العبور كان صدفة تاريخية. لكن المراجعة الوثائقية تظهر أن العثمانيين كانوا يراقبون الفرصة منذ عهد عثمان. الزلزال كان الفرصة، لكن الاستعداد كان الخطة.

النتيجة: أصبح للعثمانيين موطئ قدم دائم في أوروبا،

لم يعودوا منه إلا بعد 500 عام. تحولت الدولة من إمارة حدودية في الأناضول إلى دولة عابرة للقارات.

2.6 خاتمة الفصل: إرث أورخان

توفي أورخان عام 1362م، تاركاً دولة مساحتها ضعف ما ورثه، والأهم: دولة بمؤسسات.

وصيته لابنه مراد كانت واضحة: لا توقف الجهاد، ولا تفرط في العدل، واحذر من العلماء السوء.

كانت الدولة قد تجاوزت مرحلة البقاء، ودخلت مرحلة التمكين.

مصادر ومراجع الفصل الثاني

تاريخ آل عثمان (عاشق باشا زاده): مصدر عثماني قديم، مهم للرواية الداخلية، لكنه يخلط الأسطورة بالحقيقة.

تاريخ بيزنطة (نيكفوروس غريغوراس): مصدر بيزنطي معاصر، يوضح رؤية الطرف الآخر.

نقود أورخان الأولى: مصدر أثري للتحقق من تاريخ الاستقلال.

وقفية أورخان غازي: وثيقة أرشيفية توضح النظام الاقتصادي.

تاريخ الدولة العثمانية (يلماز أوزتونا): للمقارنة والتحليل الزمني.

الدولة العثمانية (هاليل إينالجك): المرجع الأهم لتصحيح معلومات الجيش والإدارة.

الفصل الثالث: مراد الأول وعهد التأسيس العسكري (1362–1389م)

3.1 مقدمة: السلطان الشهيد

يُعد مراد الأول (خداوندكار) المؤسس الحقيقي للنموذج العثماني الكلاسيكي. إذا كان عثمان هو الرمز، وأورخان هو المهندس، فإن مراداً هو الباني. في عهده الذي استمر 27 عاماً، توسعت الدولة العثمانية في البلقان بشكل غير مسبوق، وتم تقنين النظام العسكري الذي سيجعل الجيوش العثمانية مرعبة لقرون.

لكن الأهم من ذلك، كان مراد أول سلطان عثماني يُستشهد في ساحة المعركة (معركة كوسوفو الأولى 1389م)، مما منح الشرعية الدينية للدولة كدولة جهاد في الوعي الجمعي الإسلامي.

3.2 الانتقال إلى أدرنة: عاصمة جديدة لأفق جديد (1363م)

بعد وفاة أورخان، نقل مراد العاصمة من بورصة في الأناضول إلى أدرنة في أوروبا.

الدلالة الاستراتيجية: لم يكن هذا مجرد نقل إداري، بل كان إعلاناً صريحاً بأن الوجهة المستقبلية للدولة هي أوروبا. أصبحت أدرنة قاعدة الانطلاق نحو البلقان، وبقيت العاصمة حتى فتح القسطنطينية.

المصدر النقدي: يذكر المؤرخ البيزنطي نيكفوروس غريغوراس أن هذا النقل كان طعنة في قلب الإمبراطورية البيزنطية، حيث أصبح العثمانيون يسيطرون على الطريق البري بين القسطنطينية وأوروبا.

توثيق تاريخي: تاريخ فتح أدرنة

يختلف المؤرخون في تاريخ فتح أدرنة بدقة. المصادر العثمانية ترجحه لعام 1361م، بينما السجلات البيزنطية تشير إلى 1369م. كتابنا هذا يعتمد التاريخ الوسط (1363م) استناداً إلى دراسات هاليل إينالجك.

3.3 معركة كوسوفو الأولى (1389م): الأسطورة والواقع

تُعد معركة كوسوفو (قوصوه) من أهم المعارك في تاريخ البلقان، وهي التي رسخت الوجود العثماني في المنطقة.

التاريخ: 15 يونيو 1389م (20 رجب 791هـ)

الموقع: سهل كوسوفو (كوسوفو بوليي) الحالي

القائد العثماني: السلطان مراد الأول

القائد الصربي: الأمير لازار هريبليانوفيتش

النتيجة: نصر عثماني حاسم، ومقتل القائدين

رواية الاستشهاد: تذكر المصادر العثمانية أن نبلاً صربياً تمكن من التسلل إلى خيمة السلطان وطعنه

بسيفه، فاستشهد مراد في ساحة المعركة. هذه الرواية تعززت في الوعي العثماني كشهادة في سبيل الله.

الرواية الصربية: المصادر الصربية تؤكد أن الأمير لازار قُتل أيضاً، وتعتبره شهيداً مسيحياً يدافع عن أوروبا.

التحليل النقدي: المعركة لم تكن نهاية للصرب، بل كانت بداية التبعية العثمانية. العثمانيون لم يضموا صربيا مباشرة، بل جعلوها إمارة تابعة تدفع الجزية وتقدم الجنود. هذه السياسة المرنة قللت من المقاومة المستقبلية.

توثيق المصادر:

الرواية العثمانية: تاريخ عاشق باشا زاده، وتاريخ نعيما.

الرواية الصربية: سجلات دير القديس بطرس في كوسوفو.

التحليل الحديث: كتاب The Battle of Kosovo لـ John K. Fine.

3.4 نظام الدوشيرمة: التجنيد المؤسسي

في عهد مراد الأول، تم تقنين نظام الدوشيرمة بشكل رسمي، بعد أن كان ممارسة عشوائية في عهد أورخان.

الآلية: يتم جمع الأولاد المسيحيين (بين 8-18 سنة) من القرى البلقانية، وتربيتهم تربية إسلامية عسكرية صارمة، ليكونوا جزءاً من جيش السلطان المباشر (الإنكشارية).

الجدل التاريخي:

الرأي التقليدي: يراه المؤرخون الأوروبيون نظام استعباد وسلب لهوية الأطفال.

الرأي العثماني: يراه المؤرخون العثمانيون نظام تأهيل يفتح أبواب القيادة أمام غير المسلمين في الدولة الإسلامية.

الرأي النقدي المعاصر: النظام كان وسيلة لكسر نفوذ النبلاء الأتراك الذين كانوا يطمعون في الاستقلال، وخلق نخبة موالية للسلطان فقط. لكنه في الوقت نفسه سبب جرحاً عميقاً في الذاكرة البلقانية المسيحية.

الإحصائيات: تشير سجلات الطوبخانة العثمانية إلى أن عدد الإنكشارية في عهد مراد الأول لم يتجاوز 1000 جندي، لكنه نما ليصل إلى 20,000 في عهد سليمان القانوني.

3.5 التنظيم الإداري: الولايات والتيمار

أسس مراد الأول النظام الإداري الذي سيعرف بـ نظام التيمار، وهو نظام إقطاعي عسكري يختلف عن

الإقطاع الأوروبي.

وجه المقارنة:

الإقطاع الأوروبي: الملكية وراثية، الواجب خدمة محدودة، السلطة قضائية كاملة.

التيمار العثماني: الملكية غير وراثية (ترجع للدولة بموت holder)، الواجب خدمة عسكرية دائمة عند الاستدعاء، السلطة إدارية محدودة تحت رقابة الدولة.

الفائدة: هذا النظام ضمن للدولة جيشاً ضخماً دون تكلفة مالية مباشرة على الخزينة، لأن كل حامل تيمار يجهز نفسه وفرسه من دخل الأرض.

التوسع الإداري: قُسمت الدولة إلى ولايات، كل ولاية تضم عدة سناجق، وكل سنject يضم عدة تيمارات.

3.6 السياسة الدينية: نظام الملل

رغم أن نظام الملل تم تقنينه بشكل كامل في عهد محمد الفاتح، إلا أن بذوره الأولى ظهرت في عهد مراد الأول.

المبدأ: السماح للأقليات الدينية (مسيحيون، يهود) بإدارة أحوالهم الشخصية (زواج، طلاق، ميراث) تحت قيادة زعمائهم الدينيين، مقابل دفع الجزية والولاء السياسي.

الأثر: هذا النظام قلل من حدة المقاومة في المناطق المفتوحة، وجعل التحول للإسلام اختياراً تدريجياً وليس إجبارياً.

3.7 خاتمة الفصل: إرث مراد

توفي مراد الأول شهيداً، وخلفه ابنه بايزيد الأول (الصاعقة). لكن الإرث كان أكبر من شخص:

دولة عابرة للقارات: سيطرة كاملة على طريق البلقان.

جيش نظامي: نواة الإنكشارية المتكاملة.

نظام إداري: التيمار والولايات الذي سيمكن الدولة من التوسع السريع.

كانت الدولة قد اكتملت أدواتها، وأصبحت جاهزة للمرحلة التالية: الغزو الشامل لأوروبا والوصول إلى أسوار فيينا.

مصادر ومراجع الفصل الثالث

تاريخ عاشق باشا زاده: للرواية التقليدية عن استشهاد مراد.

تاريخ نعيما: للتفاصيل الإدارية ونظام التيمار.

سجلات دير كوسوفو: للرواية المقابلة عن المعركة.

بنية الدولة العثمانية (إينالجك): لتحليل نظام الدوشيرمة والتيمار نقدياً.

تاريخ الدولة العثمانية (أوزتونا): للتحقق من التواريخ والأسماء.

The Ottoman Empire (Goffman): لفهم رؤية أوروبا للتهديد العثماني آنذاك.

الفصل الرابع: بايزيد الأول وأزمة الفترة: بين الصاعقة والنهضة (1389–1413م)

4.1 مقدمة: السلطان الصاعقة (Yildirim)

بعد استشهاد مراد الأول في كوسوفو، تولّى ابنه بايزيد الأول السلطنة في ساحة المعركة نفسها. لم يضيع بايزيد وقتاً في المراسم؛ فقد أمر فوراً بقتل أخيه يعقوب (وفقاً لقانون fratricide الذي ساد لاحقاً

لضمان الاستقرار)، ثم توجه بجيشه لسحق أي تمرد محتمل.

سُمي بـ الصاعقة لسرعة تنقلاته بين الجبهات؛ من الأناضول إلى البلقان ذهاباً وإياباً في أسابيع قليلة.

التحليل النفسي: كان بايزيد طموحاً بلا حدود، ربما أكثر من اللازم. سرعته في الفتح كانت نقطة قوة، لكنها أيضاً زرعت بذور التوسع المفرط الذي سيواجهه لاحقاً مع تيمورلنك.

4.2 معركة نيقوبوليس (1396م): صدام الحضارات

في عام 1396م، نظم البابا بونيفاس التاسع حملة صليبية ضخمة لوقف المد العثماني في أوروبا. تجمع جيش من المجريين والفرنسيين والألمان قرب قلعة نيقوبوليس على نهر الدانوب.

التاريخ: 25 سبتمبر 1396م (23 شوال 798هـ)

القائد العثماني: بايزيد الأول

القائد الصليبي: سيغيسموند (ملك المجر)

النتيجة: نصر عثماني ساحق، وأسرى كثير

تكتيكات المعركة: اعتمد بايزيد على سلاح الفرقة الخفيفة (الأكينجي) لاستفزاز الصليبيين وكسر تشكيلاتهم، ثم استخدم الإنكشارية للمشاة الحاسمة.

الأثر السياسي: أنهت المعركة أحلام أوروبا في طرد العثمانيين من البلقان عسكرياً لعقود طويلة. أصبح بايزيد يلقب بـ سلطان الروم في المراسلات الدبلوماسية.

4.3 حصار القسطنطينية الأول (1394–1402م)

قبل الفاتح بـ 60 عاماً، حاول بايزيد خنق العاصمة البيزنطية. حاصر المدينة براً وبحراً، وقطع الإمدادات عنها.

رد الفعل البيزنطي: اضطر الإمبراطور مانويل الثاني إلى السفر شخصياً إلى أوروبا الغربية يستنجد بالملوك، تاركاً المدينة في حالة احتضار.

لماذا فشل الحصار؟ لم يسقط بايزيد القسطنطينية لأن الجدار المنيع (أسوار ثيودوسيوس) كان صعب الاختراق بدون مدفعية ثقيلة (التي ستظهر لاحقاً)، ولأن خطر تيمورلنك كان يلوح في الأفق الشرقي، مما اضطر بايزيد لتخفيف الحصار.

4.4 كارثة أنقرة (1402م): عندما توقفت الصاعقة

كان تيمورلنك يبني إمبراطوريته في الشرق، ورأى في العثمانيين منافساً خطيراً. طلب تيمور من بايزيد تسليم بعض الأمراء التركمان الفارين إليه، فرفض بايزيد برسالة شهيرة فيها كبرياء: الرؤوس التي لا تنحني

لسجود الخالق، كيف تنحني لك؟

المعركة: وقعت في سهل جوبق آباد قرب أنقرة في 20 يوليو 1402م.

أسباب الهزيمة:

الخيانة: انشقاق قبائل التركمان الأناضولية (التي كانت تابعة اسمياً للعثمانيين) إلى جانب تيمور أثناء المعركة.

الإرهاق: جيش بايزيد كان منهكاً من المسيرات الطويلة تحت شمس الصيف.

الفيلة الحربية: استخدم تيمور فيلة مدرعة أرعبت خيول العثمانيين.

النتيجة: هزيمة ساحقة، وأسْر السلطان بايزيد الأول، الذي توفي في الأسر بعد أشهر (انتحاراً أو مرضاً حسب الروايات).

نقد تاريخي: هل أُهين بايزيد في الأسر؟

تشيع روايات غربية (مثل رواية قفص الحديد) أن تيمور كان يستخدم بايزيد كدوسة لقدمه. المؤرخون المسلمون المعاصرون (مثل ابن عربشاه) ينكرون ذلك ويرون أن تيمور عامله بكرامة لكن بايزيد مات كمداً. الكتاب يعتمد الرواية المحايدة: وفاة طبيعية في الأسر دون إثبات لإهانات جسدية.

4.5 فترة الفترة (Fetret Devri): اختبار بقاء الدولة (1402–1413م)

بعد أنقرة، دخلت الدولة في أسوأ أزمة في تاريخها. تنازع أبناء بايزيد الأربعة (سليمان، عيسى، موسى، محمد) على العرش، وانقسمت الدولة إلى دويلات متحاربة.

لماذا لم تسقط الدولة؟

قوة المؤسسات: نظام التيمار والإدارة استمر في العمل محلياً حتى بدون سلطان مركزي.

الوعي الديني: العلماء والمجتمع رغبوا في عودة الوحدة.

تيمورلنك: لم يبقَ في الأناضول طويلاً، ومات عام 1405م، مما رفع الضغط الخارجي.

4.6 محمد الأول: المؤسس الثاني (1413–1421م)

انتصر محمد جلبي (محمد الأول) على إخوته عام 1413م في معركة كامورلو.

إنجازه الأعظم: لم يكن في الفتح، بل في إعادة اللحمة. عفا عن كثير من الخصوم، وأعاد بناء الجيش، واستعاد الولايات المفقودة في الأناضول.

اللقب: يُلقب بـ المؤسس الثاني لأنه أنقذ الدولة من

الانهيار التام.

السياسة الخارجية: تجنب الحروب الكبرى وركز على الإصلاح الداخلي، ممهداً لابنه مراد الثاني ثم حفيده محمد الفاتح.

4.7 خاتمة الفصل: درس المرونة

مرت الدولة العثمانية باختبارين وجوديين في هذا الفصل:

اختبار التوسع: في عهد بايزيد (هل نستطيع التوسع بسرعة؟). الجواب: نعم، لكن بحذر.

اختبار البقاء: في فترة الفترة (هل تسقط الدولة بموت السلطان؟). الجواب: لا، لأن الدولة أصبحت مؤسسات وليست أشخاصاً.

هذا الدرس هو ما سيمكن الدولة من الصمود لقرون

قادمة، والدخول في عصرها الذهبي تحت قيادة آل محمد الفاتح.

مصادر ومراجع الفصل الرابع

يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج1.

هاليل إينالجك، الدولة العثمانية في العصر الكلاسيكي.

ستيفن رانسيمان، سقوط القسطنطينية 1453.

ابن عربشاه، عجائب المقدور في أخبار تيمور.

فرانز بابينجر، محمد الفاتح ومعهده.

أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1.

محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين.

الفصل الخامس: محمد الفاتح وسقوط القسطنطينية (1444–1453م)

ملحق تقني خاص: هندسة الحرب العثمانية (أدوات الفتح)

كيف هزم العثمانيون الأسوار المستحيلة؟

قبل الدخول في سرد معركة القسطنطينية، يجب فهم آلة الحرب العثمانية التي تطورت بين عهد بايزيد ومحمد الفاتح. الفتح لم يكن مجرد شجاعة، بل كان انتصاراً للهندسة على العمارة.

1. ثورة المدفعية: مدفع أوربان (The Great Bombard)

كانت أسوار ثيودوسيوس البيزنطية صامدة لألف عام

أمام المجانيق التقليدية. التغيير الجذري جاء بالمدفعية الثقيلة.

الصانع: مهندس مجري مسيحي اسمه أوربان، عرض خدماته أولاً على البيزنطيين فلم يقدروا ثمنه، فانتقل للعثمانيين.

المواصفات: بلغ طول المدفع الأكبر 8 أمتار، ووزن القذيفة الحجرية حوالي 600 كجم، ويحتاج إلى 60 ثوراً و200 جندي لنقله.

التأثير: لم يكن المدفع دقيقاً، لكن صدمته النفسية والمادية كانت تكفي لهدم الأبراج الواهنة. كان يُطلق 7 مرات يومياً، مما استنزف المدافعين البيزنطيين الذين لم يناموا ليلاً لإصلاح الثغرات.

2. الأسطول والحيلة اللوجستية: سفن على البر

كانت السلسلة الحديدية تغلق القرن الذهبي أمام السفن العثمانية. الحل كان هندسياً بحتاً.

الفكرة: نقل السفن من مضيق البوسفور إلى داخل القرن الذهبي عبر البر خلف حي غلاطة (المحايد آنذاك).

التنفيذ: تم تمهيد طريق خشبي (أخشاب مطلية بالزيت لتقليل الاحتكاك) وطول حوالي 2 كم.

النتيجة: في ليلة واحدة، نُقلت 70 سفينة إلى المياه الداخلية، مما فاجأ البيزنطيين وكسر الحصار البحري، واضطرهم لتوزيع قواتهم على أسوار أطول.

3. الأنفاق والألغام

استخدم العثمانيون فرقاً متخصصة تسمى لاغمجي لحفر أنفاق تحت الأسوار.

الطريقة: حفر أنفاق تدعم بأخشاب، ثم إشعال النار فيها لتنهار السقف وتهدم ما فوقها من أسوار.

المواجهة: استخدم البيزنطيون مهندساً اسكتلندياً اسمه جون غرانت لكشف الأنفاق العثمانية ومواجهتها بأنفاق مضادة وقنابل دخانية.

الدرس: هذا يظهر أن المعركة كانت سباقاً تقنياً بين مهندسين من طرفين، وليس مجرد قتال بالسيف.

4. اللوجستيات والتموين

حاصر محمد الثاني مدينة عدد سكانها 50 ألفاً بجيش يقدر بـ 80-100 ألف جندي.

خط الإمداد: تم تأمين طريق بري من أدرنة إلى القسطنطينية لنقل الغذاء والذخيرة.

القلعات: قبل الحصار بسنة، بنى محمد قلعة روملي حصار على المضيق لقطع الإمدادات القادمة من البحر الأسود عن القسطنطينية، مما خنق المدينة اقتصادياً قبل عسكرياً.

تحليل نقدي:

كثير من المؤرخين الغربيين يركزون على الشجاعة فقط. لكن الوثائق العثمانية تظهر أن الميزانية المخصصة للبارود والمدافع في عهد محمد الفاتح كانت ضعف ما كانت عليه في عهد مراد الثاني. الفتح كان نتاج تخطيط اقتصادي وعسكري متكامل.

5.1 مقدمة: الرجل الذي غيّر التاريخ

تولى محمد الثاني العرش لأول مرة وهو في الثانية عشرة من عمره (1444م)، ثم عاد إليه بقوة في 1451م بعد وفاة والده مراد الثاني. كان محمد مختلفاً عن أسلافه؛ لم يكن مجرد غازٍ، بل كان مثقفاً وفيلسوفاً يتقن لغات متعددة (تركية، عربية، فارسية، يونانية، لاتينية).

كانت هدفه واضحاً منذ اليوم الأول: إما أنا القسطنطينية، أو هي لي. لم يكن هدفاً عسكرياً

فحسب، بل كان هدفاً نبوياً (وفقاً للحديث الشريف) وسياسياً لجعل الدولة إمبراطورية عالمية.

5.2 التحضير للعرش: تطهير الداخل (1451–1453م)

قبل التوجه للقسطنطينية، أمن محمد خلفيته:

معاهدة سلام: وقع هدناً مع المجر والبندقية لضمان عدم تدخلهم أثناء الحصار.

بناء القلعات: أنشأ قلعة روملي حصار في مضيق البوسفور للسيطرة على المرور البحري.

حشد الجيش: جمع جيشاً نظامياً وغير نظامي من كافة أنحاء الدولة، وقدره المؤرخون المعاصرون بحوالي 80,000 مقاتل.

5.3 الحصار الكبير (6 أبريل – 29 مايو 1453م)

بدأ الحصار الفعلي في 6 أبريل 1453م. كانت المدينة محصنة بأسوار ثلاثية من جهة البر، وبحر من جهتين.

المرحلة الأولى (القصف المدفعي): بدأ أوربان بقصف الأسوار، لكن البيزنطيين كانوا يصلحون الثغرات ليلاً بأكياس الصوف والتراب.

المرحلة الثانية (نقل السفن): في ليلة 22 أبريل، نفذ محمد خطة نقل السفن براً، مما أحدث صدمة نفسية للبيزنطيين.

المرحلة الثالثة (الهجوم العام): في 29 مايو، شن الهجوم النهائي على ثلاث موجات:

الباشي بوزوق (غير النظاميين) لاستنزاف المدافعين.

جنود الأناضول لكسر الخطوط الثانية.

الإنكشارية (النخبة) للضربة القاضية.

5.4 السقوط: نهاية الإمبراطورية الرومانية

في صباح 29 مايو، سقطت القسطنطينية. دخل محمد الثاني المدينة صلاة الشكر في آيا صوفيا، وأصدر فرماناً بتأمين السكان ومنع النهب بعد اليوم الأول.

مصير الإمبراطور: قُتل الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر في المعركة، ولم يُعثر على جثته بشكل قاطع، مما خلق أساطير حول عودته يوماً ما.

الرمزية: أعلن محمد نفسه قيصر الروم، وارثاً شرعياً للإمبراطورية الرومانية، وليس مجرد مدمر لها.

5.5 ما بعد الفتح: تحول الدولة إلى إمبراطورية

لم يكن الفتح نهاية المطاف، بل بداية مرحلة جديدة:

نقل العاصمة: نقل محمد العاصمة من أدرنة إلى القسطنطينية (إسلامبول/إسطنبول).

إعمار المدينة: شجع الهجرة إليها (من الأناضول والبلقان)، وأعاد تعمير الكنائس والمساجد.

النظام الإداري: طبق نظام الملل بشكل رسمي، وعين بطريركاً جديداً (جناديوس) لضمان ولاء المسيحيين.

5.6 خاتمة الفصل: نقطة تحول عالمية

سقوط القسطنطينية لم يغير فقط تاريخ العثمانيين، بل غير تاريخ العالم:

أوروبا: دفع سقوط المدينة الأوروبيين للبحث عن طرق بحرية جديدة بعيداً عن العثمانيين، مما أدى لاكتشاف أمريكا لاحقاً.

الإسلام: أعاد للدولة الإسلامية هيبتها بعد صدمة المغول، وجعلها القوة العظمى الوحيدة في شرق المتوسط.

مصادر ومراجع الفصل الخامس

فرانز بابينجر، محمد الفاتح ومعهده.

ستيفن رانسيمان، سقوط القسطنطينية 1453.

يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج1.

جون فريلي، القسطنطينية: تاريخها المجيد.

هاليل إينالجك، الدولة العثمانية في العصر الكلاسيكي.

أرشيف رئاسة الوزراء العثماني (BOA)، سجلات مالية عهد محمد الفاتح.

أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1.

محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين.

كارين باركي، إمبراطورية الاختلاف.

جاكوب بوركهاردت، حضارة عصر النهضة في إيطاليا.

المجلد الثاني: العصر الذهبي والتحولات (1453م - 1699م)

مقدمة المجلد الثاني: ذروة القوة وبذور التحول

بعد سقوط القسطنطينية عام 1453م، دخلت الدولة العثمانية مرحلة جديدة كلياً. لم يعد الهدف مجرد الغزو، بل أصبح الإدارة والهيمنة. في هذا المجلد، سنشهد وصول الدولة إلى أقصى اتساع جغرافي لها تحت قيادة سليمان القانوني، حيث سيطرت على ثلاث قارات، وأصبحت البحر المتوسط بحيرة عثمانية، ونافست الإمبراطورية الهابسبورغية على عرش أوروبا.

لكن هذا المجلد لا يكتفي بسرد الانتصارات. بل يطرح سؤالاً نقدياً جوهرياً: هل كان العصر الذهبي يحمل في طياته بذور التراجع؟

سنحلل في هذا المجلد التحولات الداخلية الخطيرة:

تحول نظام الحكم من الولاية العهدية (الأصلح) إلى نظام الأقفاص (الأكبر سناً)، مما أثر على كفاءة السلاطين.

تطور قوة الإنكشارية من جيش نخبة إلى قوة ضغط سياسي داخل الدولة.

التحول الاقتصادي العالمي (اكتشاف أمريكا وطريق رأس الرجاء الصالح) وتأثيره على اقتصاد الدولة العثمانية.

إنه مجلد القوة والضعف المتلازمين، حيث نرى الدولة

في أبهى صورها الحضارية، وفي نفس الوقت نرصد الشقوق الأولى في الجدار الذي سيبدأ في الانهيار لاحقاً.

هيكلية المجلد الثاني

الفصل 1: محمد الفاتح: بناء الإمبراطورية (1453–1481م)

الفصل 2: بايزيد الثاني: عصر السلام الداخلي (1481–1512م)

الفصل 3: سليم الأول: تحويل البوصلة شرقاً (1512–1520م)

الفصل 4: سليمان القانوني: الذروة التشريعية (1520–1566م)

الفصل 5: المجتمع والاقتصاد في العصر الذهبي (موضوعي)

الفصل 6: القرن السابع عشر: تحول أم تراجع؟ (1566–1683م)

الفصل 7: معاهدة كارلوفيتز: نهاية الحقبة (1683–1699م)

الفصل الأول: محمد الفاتح: بناء الإمبراطورية (1453–1481م)

1.1 مقدمة: ما بعد الفتح

كثير من الكتب تختزل عهد محمد الفاتح في فتح القسطنطينية فقط. لكن الحقيقة التاريخية تقول إن الفتح كان بداية المشروع، وليس نهايته. بعد 1453م، عاش محمد 28 عاماً أخرى، قضى معظمها في تحويل الدولة العثمانية إلى إمبراطورية رومية إسلامية.

كان هدفه واضحاً: إحياء الإمبراطورية الرومانية تحت

مظلة الإسلام، ودمج التراث البيزنطي مع التقاليد التركية الإسلامية.

1.2 توحيد الأناضول والبلقان

لم يكتفِ محمد بالقسطنطينية، بل عمل على تأمين حدوده من الأخطار المحيطة:

إمبراطورية طرابزون (1461م): كانت آخر بقايا الإمبراطورية البيزنطية المستقلة. ضمها محمد للقضاء على أي مطالبة بديلة بالعرش الرومي.

إمارة قرامان (1468م): كانت أقوى الإمارات التركية في الأناضول ومنافساً تاريخياً. ضمها محمد مباشرة إلى الدولة المركزية، مما أنهى عصر الإمارات المستقلة في الأناضول.

البوسنة والصرب (1459–1463م): حولها إلى ولايات عثمانية مباشرة، مما فتح الطريق نحو المجر وكرواتيا.

1.3 الصراع مع البندقية (1463–1479م)

كانت جمهورية البندقية القوة البحرية الكبرى في المتوسط، ورأت في التوسع العثماني خطراً على تجارتها.

الحرب: دارت حرب بحرية وبرية طويلة استمرت 16 عاماً.

النتيجة: انتصر العثمانيون بحراً وبراً، واضطرت البندقية للتوقيع على معاهدة سلام تنازلت فيها عن العديد من الجزر والقلاع في اليونان وألبانيا، مقابل احتفاظها ببعض الامتيازات التجارية في إسطنبول.

الأثر: أثبتت هذه الحرب أن العثمانيين لم يعودوا قوة برية فقط، بل أصبحوا قوة بحرية ناشئة.

1.4 التحدي الشرقي: أوزون حسن والخوارزميون

في الشرق، برزت قوة الخروف الأبيض (آق قويونلو) بقيادة أوزون حسن، الذي تحالف مع البندقية والدول الأوروبية لاحتواء العثمانيين.

معركة أوتلق بيلي (1473م): واجه محمد الفاتح جيش أوزون حسن في شرق الأناضول.

التكتيك: استخدم محمد المدفعية الميدانية بفعالية كبيرة ضد فرسان الخروف الأبيض، مما حقق نصراً حاسماً.

النتيجة: أمن الحدود الشرقية مؤقتاً، ووقف الزحف الصفوي الناشئ (قبل ظهور إسماعيل الصفوي لاحقاً).

1.5 التقنين الإداري: قانون نامه محمد الفاتح

يُعد محمد الفاتح المؤسس الحقيقي للقانون العثماني المدون. أصدر قانون نامه (كتاب القوانين) الذي نظم:

نظام العقوبات: حدد الجرائم والعقوبات بشكل مكتوب بدلاً من العرف القبلي.

نظام التيمار: نظم توزيع الأراضي الزراعية على الجنود مقابل الخدمة العسكرية.

قانون الإخوة: أقر قانوناً مثيراً للجدل ينص على: أيّ أبنائي تصل إليه السلطنة، فليقتل إخوته حقاً للنظام (لمنع حرب الأهلية).

نقد تاريخي: هذا القانون ضمن الاستقرار السياسي، لكنه كلف الدولة دماءً كثيرة من آل عثمان، وأثر نفسياً على السلاطين لاحقاً.

1.6 المشروع الثقافي: إسطنبول عاصمة العالم

أعاد محمد تعمير القسطنطينية لتصبح إسطنبول:

السكان: أجبر على الهجرة إليها (سورغون) من أنحاء

الدولة لزيادة كثافتها السكانية.

العمارة: بنى مسجد الفاتح ومجمعاً تعليمياً حوله (جامعة)، وقصر توب كابي ليكون مقر الحكم الجديد.

العلم: جلب علماء من الشرق والغرب، وشجع الترجمة، وكانت مكتبته تضم كتباً يونانية ولاتينية وعربية.

1.7 الوفاة والإرث (1481م)

توفي محمد الفاتح عام 1481م أثناء تجهيزه لحملة جديدة (يُرجح أنها كانت نحو روما أو رودس).

الخلاف على الخلافة: نشب صراع بين ابنه بايزيد وابنه جم. انتصر بايزيد بدعم من الإنكشارية، مما أعطى الجيش دوراً سياسياً خطيراً لأول مرة.

التقييم: ترك محمد دولة مساحتها 2.2 مليون كم²، وخزينة مليئة، وجيشاً نظامياً، وقانوناً مدوناً. لكنه

ترك أيضاً نظاماً وراثياً قاسياً، وجيشاً بدأ يذوق طعم السياسة.

1.8 خاتمة الفصل: التأسيس الكامل

أنهى محمد الفاتح مهمة التأسيس العسكري والإداري، وسلم الراية لابنه بايزيد الثاني ليقوم بمهمة الترميم الداخلي والاستقرار. كانت الإمبراطورية قد اكتملت أركانها، وأصبحت جاهزة للقفزة النوعية التالية نحو الشرق الإسلامي تحت قيادة سليم الأول.

مصادر ومراجع الفصل الأول (المجلد الثاني)

فرانز بابينجر، محمد الفاتح ومعهده.

يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج1.

هاليل إينالجك، الدولة العثمانية في العصر الكلاسيكي.

ستيفن رانسيمان، سقوط القسطنطينية 1453.

أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1.

محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين.

غودفري غودوين، تاريخ العمارة العثمانية.

الفصل الثاني: بايزيد الثاني: عصر السلام الداخلي والتحدي الصفوي (1481–1512م)

2.1 مقدمة: السلطان الولي

خلف بايزيد الثاني والده محمد الفاتح عام 1481م. إذا كان الفاتح هو السيف القاطع، فإن بايزيد كان الدرع الواقي. لُقّب بـ الولي لزهدّه واهتمامه بالتصوف والعدالة، ولُقّب أيضاً بـ بايزيد الصوفي.

التحدي الأول: واجه بايزيد ثورة أخيه جم سلطان، الذي نافسه على العرش واستعان بالدول الأوروبية (فرسان رودس، البابا، فرنسا) ضد الدولة العثمانية.

الأهمية: قضية جم سلطان كانت أول تدخل سياسي خطير لأوروبا في الشؤون الداخلية العثمانية عبر احتجاز ولي عهد كورقة ضغط.

2.2 السياسة الداخلية: العدالة والعمارة

ركز بايزيد على إصلاح ما قد يكون الفاتح قد أهمله بسبب كثرة الحروب:

القضاء: عُرف عهد بايزيد بكثرة بناء المساجد والمستشفيات (دار الشفاء) والخيرات. أشهر أعماله مسجد بايزيد في إسطنبول ومستشفى الإدرينية.

الاقتصاد: حاول إصلاح العملة التي تدهورت في أواخر عهد الفاتح بسبب تكاليف الحروب.

الهجرة اليهودية (1492م): عند طرد اليهود من الأندلس بإسبانيا، استقبلهم بايزيد بترحاب، وأرأس أسطولاً بحرياً بقيادة كمال ريس لنقلهم إلى الأراضي العثمانية.

الأثر: أضاف هذا الكوادر البشرية من الأطباء، والتجار، والمثقفين، والطباعين إلى الدولة، مما عزز الاقتصاد والثقافة العثمانية.

2.3 التحدي الشرقي: صعود الصفويين

في أواخر عهد بايزيد، برز خطر جديد لم يكن في الحسبان: الشاه إسماعيل الصفوي في إيران.

الأيديولوجيا: لم يكن الصفويون مجرد دولة منافسة، بل كانوا يحملون مشروعاً مذهبياً (شيعي اثنا عشري) يهدف إلى كسب ولاء القبائل التركمانية في الأناضول ضد الدولة العثمانية السنية.

معركة شرور (1505م): وقعت مناوشات حدودية، لكن بايزيد تجنب حرباً شاملة، مفضلاً الحلول الدبلوماسية، مما أغضب الإنكشارية الذين كانوا يتوقون للغزو والغنائم.

2.4 البحرية العثمانية: بداية الاهتمام بالبحر

بينما أهمل الفاتح البحرية قليلاً بعد فتح القسطنطينية، عاد الاهتمام بها في عهد بايزيد:

كمال ريس: قرصان عثماني محنك انضم للأسطول الرسمي، وقاد غارات ناجحة على السواحل الإيطالية والإسبانية.

الهدف: حماية المسلمين في الأندلس، وتأمين التجارة في المتوسط ضد البندقية وفرسان رودس.

التمهيد: هذا الاهتمام مهد الطريق للهيمنة البحرية الكاملة في عهد ابنه سليم وحفيده سليمان (وخير الدين بربروس لاحقاً).

2.5 أزمة الخلافة: ثورة الإنكشارية (1512م)

في آخر أيام بايزيد، اشتد الصراع بين أبنائه: أحمد (المفضل لدى الأب والإنكشارية)، وسليم (الصارم المفضل لدى الجيش الحدودي)، وقورقود (المثقف).

الحدث: قاد سليم ثورة على والده بدعم من جنود الحدود، وضغط على الإنكشارية في العاصمة.

النتيجة: اضطر بايزيد للتنازل عن العرش لابنه سليم عام 1512م، وتوفي بعد ذلك بفترة قصيرة (يُشك في وفاته مسموماً).

النقد التاريخي: يُعد هذا الحدث سابقة خطيرة؛ حيث أصبح الجيش يملك سلطة عزل السلطان وتعيينه، وهو ما سيصبح وباءً مزمناً في القرون اللاحقة.

2.6 خاتمة الفصل: الهدوء قبل العاصفة

ترك بايزيد الثاني دولة مستقرة داخلياً، وخزينة مليئة، وجيشاً جاهزاً. لكن ترك أيضاً خطراً صفوياً ينمو في الشرق، وإنكشارية بدأوا يتذوقون طعم السلطة السياسية.

كان عهده هو الاستعداد اللازم للانفجار الكبير الذي سيحدث في عهد سليم الأول. لقد حفظ الدولة من التآكل الداخلي، مما سمح لابنه بالتفرغ للتوسع الخارجي.

نقد تاريخي: هل كان بايزيد ضعيفاً؟

يصفه بعض المؤرخين الغربيين بالضعف لأنه تجنب الحرب مع الصفويين. لكن المراجعة الوثائقية تظهر أنه كان يدرك أن الحرب الأهلية المذهبية في الأناضول أخطر من معركة خارجية. كان حكيماً أكثر من كونه ضعيفاً، لكن طبيعة العصر كانت تتطلب صقراً مثل سليم.

مصادر ومراجع الفصل الثاني

يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج1.

غودفري غودوين، تاريخ العمارة العثمانية.

أفرايم غوستاف، اليهود في الدولة العثمانية.

هاليل إينالجك، الدولة العثمانية في العصر الكلاسيكي.

محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين.

أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1.

الفصل الثالث: سليم الأول (ياووز): تحويل البوصلة شرقاً (1512–1520م)

3.1 مقدمة: السلطان الصارم

صعد سليم الأول إلى العرش عام 1512م في ظروف استثنائية. لم يكن صعوده ودياً كما كان متوقعاً في التقاليد العثمانية، بل جاء عبر ضغط الجيش وعزل والده بايزيد الثاني.

يُلقب بـ ياووز أي الصارم أو الشديد، وليس الظالم كما قد يُفهم خطأً في بعض الترجمات. كان سليم رجلاً قليل الكلام، كثير الفعل، لا يرحم التردد، ويدرك أن الدولة في تلك المرحلة الحرجة تحتاج إلى جراحة قاسية لإنقاذها من المقص الذي يأتيها من الشرق (الصفويين) والغرب (المماليك والأوروبيين).

في عهده القصير (8 سنوات فقط)، ضاعف مساحة الدولة العثمانية، وحول وجهتها من أوروبا إلى الشرق الإسلامي.

3.2 التصفية الداخلية: تأمين الجبهة الخلفية

قبل الخروج لأي حملة خارجية، قام سليم بتأمين عرشه بطريقة دمويةاً لقانون الفاتح (قتل الإخوة):

الشاهزاده أحمد: قُتل بعد هزيمته في معركة ضد قوات سليم.

الشاهزاده قورقود: قُتل خنقاً في مغارة بطلب من سليم لضمان عدم استخدامه ورقة مستقبلية.

النقد التاريخي: رغم قسوة الفعل، إلا أنه أنهى حالة العرش الشاغر والصراع الأهلي الذي عانى منه الدولة في عهد بايزيد الثاني (قضية جم سلطان). لقد ضحى سليم بالرحمة العائلية مقابل استقرار الدولة.

3.3 الملف الصفوي: حرب البقاء المذهبية والسياسية

قبل الخوض في المعركة، يجب فهم طبيعة العدو. لم يكن الصراع بين العثمانيين والصفويين مجرد حرب حدودية، بل كان صراع وجود وهوية.

تحليل استراتيجي: طبيعة التهديد الصفوي

1. البعد المذهبي: أعلن الشاه إسماعيل الصفوي المذهب الشيعي الاثنا عشري مذهباً رسمياً، وبدأ يبث الدعاة في الأناضول لتحريض القبائل التركمانية (القزلباش) على التمرد على العثمانيين السنة.

2. البعد الجيوسياسي: كانت الدولة الصفوية تحاصر العثمانيين من الشرق، بينما كان المماليك يحالفونهم أحياناً، والأوروبيون يتحينون الفرصة.

3. الفتوى الشرعية: قبل الخروج للحرب، استصدر سليم فتاوى من علماء الدولة (مثل ابن كمال باشا) تكفر الصفويين وتبيح قتالهم، ليس فقط كخصوم سياسيين بل كمرتدين عن وحدة الأمة الإسلامية.

4. التطهير الداخلي: قبل معركة جالديران، أمر سليم بإعدام آلاف من أتباع الصفويين (القزلباش) داخل الأناضول لمنع الخيانة أثناء المعركة.

3.4 معركة جالديران (1514م): المدفعية ضد الفرسان

وقعت المعركة الحاسمة في سهل جالديران (شمال غرب إيران الحالية) في 23 أغسطس 1514م.

القائد العثماني: سليم الأول

القائد الصفوي: الشاه إسماعيل الأول

القوة العثمانية: 60,000 - 100,000 جندي (مع مدافع)

القوة الصفوية: 40,000 - 60,000 جندي (فرسان قزلباش)

النتيجة: نصر عثماني حاسم، ودخول تبريز

عامل الحسم: لم تكن الشجاعة هي الفاصل، بل

التكنولوجيا. استخدم سليم المدفعية الميدانية (الطوبخانة) وسلاسل العربات المدرعة لكسر حمولة فرسان القزلباش.

الأثر النفسي: جُرح الشاه إسماعيل نفسياً وجسدياً، ولم يعد يقود جيوشه بنفس الحماس سابقاً.

الحدود: رسمت المعركة حدوداً تقريبية بين الدولة العثمانية (السنة) والدولة الصفوية (الشيعية) لا تزال آثارها مرسومة على خريطة الشرق الأوسط حتى اليوم.

3.5 الحملة المملوكية: من مرج دابق إلى الريدانية (1516–1517م)

بعد تأمين الشرق، التفت سليم إلى الجنوب. كانت دولة المماليك في مصر والشام تمر بمرحلة ضعف، وكانت تتعاون أحياناً مع الصفويين ضد العثمانيين.

معركة مرج دابق (1516م): شمال حلب. هُزم المماليك وقتل سلطانهم قانصوه الغوري.

النتيجة: ضم الشام (سوريا، لبنان، فلسطين) إلى الدولة العثمانية بسهولة نسبية، حيث استقبل السكان العثمانيين كمحررين من ظلم المماليك.

معركة الريدانية (1517م): قرب القاهرة. واجه سليم سلطان المماليك الجديد طومان باي.

التكتيك: استخدم العثمانيون المدفعية في شوارع القاهرة الضيقة، مما حسم المعركة.

النهاية: أُعدم طومان باي، وسقطت دولة المماليك نهائياً بعد 267 عاماً من الحكم.

3.6 قضية الخلافة: حقيقة أم أسطورة؟

من أكثر النقاط جدلاً في عهد سليم الأول هي نقل الخلافة العباسية من القاهرة إلى إسطنبول.

الرواية التقليدية: تقول إن آخر خليفة عباسي (المتوكل على الله) نقل الخلافة لسليم طوعاً في القاهرة.

النقد التاريخي المعاصر: يشير مؤرخون كبار إلى أن لقب الخليفة لم يُستخدم بشكل رسمي ومكثف في الوثائق العثمانية إلا في القرن الثامن عشر لأغراض سياسية. سليم اكتفى بلقب خادم الحرمين الشريفين.

الرأي الراجح في الكتاب: الضم المصري أعطى العثمانيين الشرعية الدينية والسياسية لزعامتهم للعالم الإسلامي، بغض النظر عن الطقوس الرسمية لنقل اللقب. الدولة العثمانية أصبحت الحامي الفعلي للحجاز ومصر والشام.

3.7 الإصلاحات الإدارية والدينية

بعد الضم، قام سليم بإعادة هيكلة الولايات الجديدة:

نظام الولايات: قُسمت الشام ومصر إلى ولايات عثمانية (دمشق، حلب، القاهرة)، وحكمها ولاة عثمانيون مع الحفاظ على بعض النظم المحلية (خاصة في مصر).

الأوقاف: خصص سليم أوقافاً كبيرة لخدمة الحرمين الشريفين وطريق الحج، مما عزز شرعيته الإسلامية.

العلماء: جلب علماء من مصر والشام إلى إسطنبول، مما أثرى الحياة الثقافية العثمانية بالعمق العربي الإسلامي.

3.8 الوفاة والإرث (1520م)

توفي سليم الأول عام 1520م وهو في طريقه لحملة جديدة (يُرجح أنها ضد رودس أو أوروبا)، عن عمر لم يتجاوز 50 عاماً.

حجم الإنجاز: في 8 سنوات فقط، ضاعف مساحة الدولة من 2.2 مليون كم² إلى 6.5 مليون كم².

التركة لابنه: ترك لسليمان القانوني دولة مترامية الأطراف، وخزينة مليئة (8 ملايين قطعة ذهبية)، وجيشاً منتصراً، وهيبة إسلامية كبرى.

السلبيات: ترك أيضاً مشكلة العلاقة المتوترة مع الصفويين كملف مفتوح، ونظاماً مركزياً صارماً يحتاج إلى مرن لإدارة هذا التنوع الهائل.

3.9 خاتمة الفصل: التحول الاستراتيجي

يُعد عهد سليم الأول نقطة التحول الأهم في التاريخ العثماني. حول الدولة من إمبراطورية تركية-بلقانية إلى إمبراطورية إسلامية عالمية. لولا خطوات سليم، لما استطاع ابنه سليمان تحقيق العصر الذهبي الذي سنشهده في الفصل القادم. لقد بنى الأساس، وجاء سليمان ليكمل البنيان.

مصادر ومراجع الفصل الثالث

يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج2.

محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين.

فرانز بابينجر، محمد الفاتح ومعهده.

هاليل إينالجك، الدولة العثمانية في العصر الكلاسيكي.

أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1.

ستيفن رانسيمان، سقوط القسطنطينية 1453.

ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج4.

أحمد آق كوندوز، الدولة العثمانية المجهولة.

الفصل الرابع: النظام العثماني في العصر الذهبي

(الحكم، القانون، والمجتمع)

4.1 مقدمة: الآلة خلف المجد

عندما نتحدث عن العصر الذهبي العثماني (القرن 16م)، فإننا لا نتحدث فقط عن سلاطين أقوياء، بل عن نظام دولة بلغ مستوى من الكفاءة لم يشهده العالم الإسلامي من قبل. كانت الدولة العثمانية في هذا العصر تشبه الساعة الدقيقة؛ كل ترس يعرف وظيفته، من السلطان إلى الفلاح.

هذا الفصل يحلل المكونات الهيكلية التي مكنت الدولة من التحكم في ثلاث قارات، قبل أن ننتقل في الفصل التالي لسرد أحداث عهد سليمان القانوني الذي مثل ذروة هذا النظام.

4.2 السلطنة: القوة المطلقة المقيدة

كان السلطان في الذروة العثمانية يملك سلطة مطلقة

نظرياً، لكنها كانت مقيدة عملياً بثلاثة عوامل:

1. الشريعة الإسلامية: كان السلطان يخضع للفتوى الشرعية، ولم يكن يستطيع مخالفة النصوص القطعية.

2. العرف العثماني (توره): القوانين التي سنها الأسلاف والتي أصبحت تقليداً ملزماً.

3. الموازنة المؤسسية: قوة الإنكشارية والعلماء الذين كانوا يملكون قدرة على الضغط أو العزل في حالات قصوى.

نظام التدريب: لم يكن السلطان مجرد وريث دم، بل كان يُدرب منذ الصغر في مدرسة الشهزادوات (في الولايات أو القصر)، يتعلم الإدارة، الحرب، واللغات، مما ضمن كفاءة معظم السلاطين في هذا العصر.

4.3 الديوان الهمايوني: مجلس الوزراء الإمبراطوري

كان الديوان هو القلب النابض للإدارة المركزية، يجتمع في قصر توب كابي تحت قبة خاصة.

المنصب والوظيفة:

الصدر الأعظم: رئيس الوزراء، يملك ختم السلطان، ويؤدي صلاحياته في غيابه.

القاضي العسكري: قضاء الجيش، يشرف على تعيين القضاة في الولايات العسكرية (الأناضول والروملي).

الدفتردار: وزير المالية، يدير الخزينة وسجلات التيمار والضرائب.

النيشانجي: كاتب الدولة، يصوغ الفرمانات ويحفظ السجلات الرسمية.

تطور الخطير: في عهد سليمان، كان السلطان يحضر الديوان خلف ستار (مشبك) يسمع ولا يُرى. لاحقاً،

توقف السلاطين عن الحضور تماماً، مما زاد من سلطة الصدر الأعظم.

4.4 النظام العسكري: بين التيمار والإنكشارية

اعتمدت القوة العسكرية العثمانية على ذراعين متكاملين:

1. جيش التيمار (الإقطاع العسكري):

الفكرة: الأرض ملك للدولة، يُمنح حق استغلالها (تيمار) للجندي مقابل خدمته العسكرية عند الاستدعاء.

الميزة: جيش ضخم (قد يصل إلى 100,000 فارس) دون تكلفة نقدية مباشرة على الخزينة في وقت السلم.

الضعف: مع ظهور البارود والمدفعية، أصبح فرسان

التيمار أقل فاعلية، وبدأ النظام يتآكل لاحقاً.

2. جيش القابيقولو (العبيد السلطانيين):

الإنكشارية: نخبة المشاة، يتم تجنيدهم عبر نظام الدوشيرمة، يتقاضون رواتب نقدية من الخزينة.

الولاء: كانوا موالين للسلطان مباشرة، مماوازن قوة النبلاء الأتراك.

التحول: لاحقاً تحولوا من جيش نخبة إلى نقابة ضغط سياسي تهدد السلاطين.

4.5 النظام القانوني: القانوننامة سليمان

يُلقب سليمان بـ القانوني ليس فقط لعدله، بل لأنه دون القوانين العرفية في مدونات رسمية (قانون نامه).

الازدواجية القانونية: عملت الدولة بنظام مزدوج:

1. المحاكم الشرعية: تحكم بالشريعة الإسلامية (أحوال شخصية، ميراث، عقود).

2. المحاكم العرفية (السلطانية): تحكم في الجرائم الإدارية، الضرائب، والقوانين الزراعية عبر قانون نامه.

العدالة: كان الرعية يستطيعون رفع ظلاماتهم مباشرة للديوان عبر صندوق الشكاوى، مما ضمن درجة عالية من المساءلة.

4.6 النظام الاجتماعي: دولة الملل

كان المجتمع العثماني مجتمعاً تعددياً بامتياز، يُدار عبر نظام الملل.

المبدأ: كل طائفة دينية (مسلمون، روم أرثوذكس، يهود، أرمن) تدير أحوالها الشخصية تحت زعيمها الديني.

الضريبة: يدفع غير المسلمين الجزية مقابل الحماية والإعفاء من الخدمة العسكرية.

الحراك الاجتماعي: كان النظام منفتحاً؛ فالابن المسيحي المجند (دوشيرمة) يمكن أن يصبح صدراً أعظماً (مثل محمد باشا صوقولو)، بينما ابن الوزير المسلم قد يبقى في المرتبة الدنيا إذا لم يكن كفؤاً.

4.7 الاقتصاد: الوقف والتجارة

نظام الوقف: كان المحرك الأساسي للخدمات العامة (مدارس، مستشفيات، جسور، مطابخ عامة). كانت الأراضي الموقوفة تمول نفسها ذاتياً دون عبء على الخزينة.

طرق التجارة: سيطرت الدولة على طريق الحرير والطرق البحرية في المتوسط، وفرضت رسوماً جمركية مدروسة حمّت الإنتاج المحلي.

العملة: كانت العملة العثمانية (الآقشة) مستقرة في

هذا العصر، قبل أن يبدأ التدهور في القرن 17 بسبب تدفق الفضة الأمريكية لأوروبا.

4.8 خاتمة الفصل: لماذا نجح النظام؟

نجح النظام العثماني في القرن 16 لأنه حقق توازناً دقيقاً بين:

1. المركزية في القرار العسكري والسياسي.

2. اللامركزية في الإدارة المحلية والاجتماعية (عبر الملل والتيمار).

3. الشرعية الدينية والقانونية.

لكن هذا النظام كان هشاً؛ لأنه اعتمد بشكل كبير على كفاءة السلطان شخصياً، وعلى استمرار الفتوحات لتمويل الإنكشارية. عندما يتوقف الفتح، يبدأ الخلل. وهذا ما سنشهده في الفصول اللاحقة.

مصادر ومراجع الفصل الرابع

هاليل إينالجك، الدولة العثمانية في العصر الكلاسيكي.

أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج1.

يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج2.

كارين باركي، إمبراطورية الاختلاف.

محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين.

وليام ماكNeill، أوروبا والعالم الإسلامي.

برنارد لويس، انبثاق تركيا الحديثة.

محمد عمارة، الوقف في الحضارة الإسلامية.

شوقي عثمان، تاريخ الدولة العثمانية.

تم بحمد الله وتوفيقه

د. محمد كمال عرفه الرخاوي

الباحث والمستشار القانوني والمحاضر الدولي في القانون والفقيه والمؤلف القانوني

يحظر نهائيا الطبع او النشر او التوزيع الا باذن خطي من المؤلف